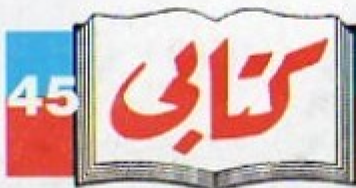
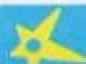






45

إميلى برونتى

مرتفعات ويذرنج

الجزء الثانى

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



مطبوعات كتابى
إصــدار جــديد

عزيزى القارئ :

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن فى كل شىء تقريبا : تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت ! . . وهكذا اقترن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنسانى : وكان نصيب صغراهن « آن برونتى » من هذا الإنتاج رواية (أجنس جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات وذرنج) .
أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب ــ وهو مرض السل أو التدرن الرئوى ــ فماتت به « شارلوت » فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ ــ ١٨٥٥) ، وماتت به «اميلى» فى سن الثلاثين (١٨١٨ ــ ١٨٤٨) . . ثم ماتت به «آن» فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ ــ ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «برونتى» لاتقف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجو القاتم الذى تتسم به رواياتهن جميعًا . فقد كانت أسرة برونتى تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاروث) بانجلترا . . وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، و إليزابيث ، و شارلوت ، و برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلى ، وأخيرًا «آن» .
وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فى سن السابعة ، والصغرى «آن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الآخرين !
بعد أربع سنوات ألحق الأب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية ــ هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها شارلوت فى رواية (جين أير) باسم «لووود» . .

حلمى مراد



مرتفعات ويذرنج

النص الكامل لقصة «إميلى برونتى»

الجـزء الثانى

وصل ما انقطع ..

فى نهاية الجـزء الأول من هـذه الترجمة الكاملة لقصـة (مرتفعات ويذرنج) ، تركنا « كاثرين ايرنشو » ـ زوجـة « ادجار لينتون » ـ راقدة فى فراش المرض ، تفضى لخادمتها « نللى » بذات نفسها ، بعد أن اعتصمت بمخدعها وأضربت عن تناول الطعام ثلاثة أيام ، على أثر المشادة العنيفة التى نشبت بينها وبين زوجها بسبب .. هيثكليف ! .. وكانت مقدمات هذه الأزمة بين الزوجين قد بدأت حين اكتشفت كاثرين أن شقيقة زوجها ـ ايزابيلا ـ قد وقعت فى هوى هيثكليف ، فلما حاولت أن تنفرها منه بإظهار عيوبه ومساوئه لها بصراحة ، أهانتها العذراء الغريرة واتهمتها بالغيـرة والأنانية .. فما كان من كاثرين إلا أن انتقمت لكرامتها بأن أفشت لهيثكليف السر الذى كان يجهله ، سر تدله ايزابيلا فى هواه ! .. وانتهز الوغـد الفرصة فدبر الخطة لاستغلال هذا الهوى الصبيانى وتشجيعه ، بغيـة مصـاهرة غريمه الارسـتقراطى « ادجار لينتون » وإذلاله ! .. وذات يوم فاجـأ ايزابيلا فى الحديقة فقبلها .. ولمحته « نللى » فأبلغت كاثرين بالأمر ! .. فثارت كاثرين فى وجهه وأمعنت فى تأنيبه . وانتهز ادجار الفرصـة ـ دون أن يقف على سبب المشادة ـ فأمر هيثكليف بالخروج وعدم العودة إلى الدار مرة أخرى ! .. وعلى أثر انصرافه ثارت كاثرين على زوجها واتهمته بالانصـات إلى حديثهـا مع هيثكليف من وراء

الباب ، ثم تظاهرت بالإصابة بنوبة صرع ! .. لكن « نللى » فضحت « تمثيلها » ، فانطلقت غاضـبة إلى مخدعهـا حيث اعتصمت به وأضربت عن تناول الطعام ثلاثة أيام .. لكنها فى اليوم الثالث اضطرت إلى أن تطلب بعض الطعام . وحين علمت أن زوجها يقضى وقته فى غرفة المكتبة ، غيـر مبال بقطيعتها ، صدمها إهماله إياها ، وأصـابها بشـبه نوبة من الهـذيان وهواجس الخـوف من الموت والأشـباح .. ثم راحت تذكر « نللى » ببدء أحداث الأسبوع المشئوم حين اعتصمت بمخدعها ، وكيف داهمها قبيل الفجر كابوس مروع خشيت منه على عقلها .. كابوس رأت نفسـها فيه وقد عادت سنوات إلى الوراء ، إلى يوم مات أبوها وهى بعد صبية فى الثانية عشرة ، فأقام أخوها « هندلى » ستارا بينها وبين لقاء رفيق صباها هيثكليف ـ الذى كان بالنسبة لها كل حياتها وكيانها ! ـ الأمر الـذى قاست منه الشعور بالبؤس والعذاب .. وصور لها الكابوس كأنها تنام فى فراشـها القديم بمنزل « مرتفعات ويذرنج » ، الفراش الشبيه بخزانة ذات فتحات مربعة ، من خشب البلوط ـ وهو الفراش الذى نام فيه مستر لوكوود ، مستأجر الدار ، فى بداية القصة ـ فلما أفاقت من الكابوس وجدت نفسـها فى مخدعها بقصر « ثرشـكروس جـرانج » حيث أغفت وهى جالسة على الأرض مستندة إلى رجل المائدة !

والآن تستطيع أن تتابع القراءة من حيث تركنا « كاثرين » تحدث « نللى » عن ذلك الكابوس :

« .. رأيتني قد عدت صبية ، وكان أبي قد ووري التراب للتو ، وبدأ عذابي وبؤسي من ذلك الفراق الذي فرضه هندلي بيني وبين هيثكليف .. كنت قد تركت وحدي ، للمرة الأولى في حياتي ، فلما أفقت من نعاس مزعج بعد ليلة حافلة بالبكاء والنشيج ، رفعت يدي لأزيح بها باب الخزانة المنزلق .. فإذا بها تصطدم بسطح المائدة ! .. وأفقت من رؤياي فجأة لأجدني متكئة على بساط أرض مخدعي ! .. وإذا بآلامي الماضية تضيع في لجة بعيدة الغور من اليأس . وليس في وسعي أن أفسر لك لماذا شعرت بالشقاء والتعاسة يحيطان بي من كل جانب ، فلا بد أن ذلك كان شعورا وقتيا ، لأنني لا أكاد أجد له سببا أو مبررا .. ولكن خيل إلي كأن يقظتي قد انتزعتني ، وأنا بعد في الثانية عشرة ، من (المرتفعات) ، ومن كل حياتي ورفقتي المبكرة ، ومن كياني كله ، كما كان لي هيثكليف في ذلك الوقت .. وصيرتني فجأة ، وبعنف ، إلى مسز لينتون ، سيدة « ثرشكروس جرانج » ، وزوجة رجل غريب .. إنه النفي والتشريد من كل ما كان دنياي وعالمي .. ألا ليتك تتصورين لمحة من الهاوية التي ترديت فيها . وبوسعك أن تهزي رأسك كما تشائين يا نللي ، ولكنك حقا قد ساعدت على عدم استقراري ! .. كان ينبغي أن تتحدثي إلى ادجار . كان هذا واجبك حقا .. وأن ترغميه على أن يدعني في سلام وهدوء .. آه ! .. إنني أشتعل بالنيران ! .. ليتني أكون في الخلاء الآن . ليتني أعود فتاة صغيرة من جديد ، جريئة ، نصف متوحشة ، حرة مطلقة السراح ، أسخر مما يوجه لي من إهانات ، ولا أجن منها غضبا كشأني الآن ! .. لماذا تغيرت كل هذا التغير ؟ .. لماذا تندفع الدماء في عروقي فائرة ثائرة لمجرد سماع كلمات قلائل ؟ .. إنني واثقة من أنني سوف أعود لحالتي الأصيلة إذا وجدت نفسي بين الأحراش فوق هذه التلال . افتحي النافذة ثانية يا نللي ، ودعيها مفتوحة على مصراعيها . أسرعي .. لماذا لا تتحركين ؟

فقلت : « لأنني لا أريد أن تصابي ببرد يقتلك .. »

ـ بل تعنين أنك لا تريدين أن تهبيني فرصة للحياة ! .. ومع ذلك فإني لم أصبح عاجزة عن الحراك بعد .. سوف أفتحها بنفسي ..

وهبطت من الفراش مسرعة ـ قبل أن أستطيع منعها ـ فاجتازت الحجرة وهي تترنح في مشيتها ، ففتحت النافذة وأطلت منها وقد أحنت جسمها إلى الأمام غير مبالية بالهواء المثلج الذي كان يمزق كتفيها العاريتين كسكين حادة .. ورحت أتوسل إليها ، ثم حاولت أن أستخدم القوة في إرغامها على الرجوع عن النافذة ، ولكني سرعان ما تبينت أن الحمى قد زادتها قوة ، حتى جاوزت كل ما لدي من قوة ! (وقد كانت في الواقع تحت تأثير الحمى ، إذ اقتنعت بذلك من أفعالها اللاحقة وهذيانها الغريب) .. وكان القمر غائبا عن صفحة السماء ، وكل شيء تحتنا يسبح في لجة من الظلمة الحالكة . ولم يكن ثمة أي ضوء ينبعث من أي منزل قريب أو بعيد ، فقد أطفئت أضواء المنازل كلها منذ زمن طويل .. أما أضواء

(مرتفعات ويذرنج) فلم يكن يبين منها شيء البتة ، وبرغم ذلك فانها كانت تؤكد أنها ترى بريقها ، إذ صاحت فى لهفة :

ــ انظرى !.. هذه حجرتى والشمعة مضاءة فيها ، والأشجار تتارجح أمامها ! .. أما الشمعة الأخرى فهى فى حجرة جوزيف العلوية . ان جوزيف ما زال ساهرا ، أليس كذلك ؟.. إنه ينتظر حتى أعود إلى المنزل ليوصد البوابة . حسنا ، سوف ينتظر طويلا !.. فهى رحلة شاقة ، والقلب الكسير لا يستطيع قطعها فى يسر !.. ولا بد لنا من المرور بكنيسة (جيمرتون) لكى نقوم بهذه الرحلة .. لقد طالما تحدينا أشباحها معا ، وراهن كل منا الآخر على الوقوف بين القبور ، ودعوة الأشباح للظهور !.. ولكن هبنى راهنتك الآن يا هيثكليف ، فهل تجرؤ على الوقوف هناك ؟ .. لو انك فعلت فسوف استبقيك معى ، فما كنت لأرقد هناك وحدى . فليدفنونى على عمق اثنى عشر قدما ، وليهيلوا أحجار الكنيسة كلها فوق قبرى ، فلن استريح حتى الفاك معى .. لن يقر لى قرار قط حتى افعل !

وتمهلت قليلا ، ثم استطردت وعلى محياها ابتسامة غريبة :

ــ إنه يفكر فى الأمر ، ويفضل لو ذهبت إليه ، بدلا من أن يأتى إلى .. ابحث عن طريقة لذلك إذن ! .. ولكن بعيدا عن فناء الكنيسة ! .. يا لك من بطىء متثاقل ! ولكن هدىء روعك ، لقد كنت دائما تتبعنى !

وإذ تبينت عبث مجادلتها ومعارضة أقوالها الجنونية ، فقد رحت أفكر فى وسيلة أستطيع الوصول بها إلى شىء أغطيها به أو ألفه حولها ، دون أن تتخلى قبضتى عن الإمساك بها (فما كنت لآمن لها وادعها وحدها بجوار النافذة الفاغرة فاها) .. وفى تلك اللحظة اجفلت إذ سمعت صرير أكرة الباب وهى تدور ، ثم إذا بمستر لينتون يدخل الحجرة .. فقد كان فى المكتبة فلم يبارحها إلا فى تلك الساعة ، وبينما كان يجتاز الردهة سمع حديثنا فاثار فضوله ، أو خوفه ، وأرادان يعرف ما يحدث فى تلك الساعة المتأخرة .. فما كدت ألمح صيحة الدهشة التى تجمعت على شفتيه ، إذ شهد المنظر الذى طالعه ، وجو الحجرة القارس ، حتى هتفت قائلة ، لأحول دون انطلاق تلك الصيحة :

ــ أواه يا سيدى !.. ان سيدتى المسكينة مريضة ، وقد تغلبت على ، فلم أعد أستطيع تهدئتها البتة .. أرجو أن تأتى وتقنعها بالذهاب إلى الفراش . أنس غضبك يا سيدى ، لأنها من الصلابة بحيث لا يمكن تحويلها عما صممت عليه !

فصاح وهو يسرع إلينا : « كاثرين مريضة ؟! .. أغلقى النافذة يا ايلين .. كاثرين .. لماذا ؟ » .

وكف عن الكلام بغتة ، إذ كان منظر مسز لينتون الشعث ، وشحوبها الشديد ، قد ألجم لسانه وشله عن النطق ، ولم يعد قادرا إلا على نقل نظراته بينها وبينى فى دهشة وارتياع .. فتابعت الحديث قائلة :

— لقد لبثت هنا كل هذه المدة ، تجتر أحزانها ، لا تذوق طعاما ، ولا تنبس عن صدرها لمخلوق ، فلم تسمح لأحدنا بالدخول عليها إلا الليلة ، ولذلك لم يكن فى وسعنا أن نخبرك عن حالتها — إذ كنا أنفسنا نجهلها — ولكن أرجو أن يكون الأمر بسيطا ..

وقد شعرت بأننى كنت أنطق بهذه العبارات فى ارتباك وتلعثم ، فنظر السيد إلى عابسا ، ثم قال فى صرامة : « أترين الأمر بسيطا ، يا أيلين دين ؟.. سوف يكون عليك أن تفسرى مسلكك إذ كتمت ذلك عنى ، فيما بعد .. »

ثم أخذ زوجته بين ذراعيه ، وراح ينظر إليها فى ألم وأسى .. فلم يبد فى نظراتها ، فى بادىء الأمر ، ما ينم على أنها قد عرفته !.. كانت نظراتها الشاردة لا تراه ولا تتبينه . ومع ذلك كانت النوبة الثائرة قد بدأت فى الهدوء ، فما أن تحولت عيناها عن الظلمة الخارجية الحالكة ، وبدأت تركز انتباهها فيه رويدا رويدا ، حتى عرفت من الذى كان يحوطها بذراعيه ، فقالت فى انتفاضة غاضبة :

— آه !.. هل أتيت يا أدجار لينتون ؟.. إنك أحد تلك الأشياء التى يجدها المرء دائما كلما كان فى غير حاجة إليها ، وعندما يحتاج إليها لا يجدها قط !.. وأحسب أننا سوف يكون لدينا الكثير من الأحزان الآن — بل أنا واثقة من ذلك — ولكنها لا يمكن أن تحول بينى وبين مسكنى الضيق هناك ! .. مسكنى ومستقرى وموئل راحتى ، حيث قدر على أن

أرقد فيه قبل انقضاء الربيع . ولكنه لن يكون بين قبور آل لينتون ، تحت سقف الكنيسة ، وإنما فى الهواء الطلق ، فوق الروابى ، لا يعلوه سوى قائم من الحجر !.. أما أنت فلك أن تذهب حيث يسرك الذهاب ، فإما أن تمضى إليهم أو تأتى إلى !

فغص السيد بريقه وهو يقول : « ماذا فعلت بنفسك يا كاثرين ؟.. ألم أعد شيئا بالنسبة إليك ؟ وهل تحبين ذلك المنكود هيث .. ؟ »

فصاحت مسز لينتون : « صه !.. اسكت . لو ذكرت هذا الاسم فسوف أنهى المشكلة فى الحال ، بوثبة من النافذة ! .. إن ما تلمسه الآن قد يكون لك ، ولكن روحى سوف تكون فوق قمة ذلك التل قبل أن تضع يديك على ثانية .. إننى لا أريدك يا أدجار .. بل لم يعد فى وسعى أن أريدك ! .. ارجع إلى كتبك ، فكم يسرنى أن لديك ما يسليك ويسرى عنك . أما أنا ، فكل ما كان لك منى ، قد ذهب وولى ! »

فتدخلت قائلة : « إن عقلها يهيم فى آفاق مجهولة يا سيدى ، لقد قضت الليلة بأسرها تهذى بكلام لا معنى له .. ولكن دعها تلق نصيبا وافرا من الراحة ، وقسطا كافيا من العناية ، وسوف تستعيد قواها ومرحها .. يجب أن تحذر ، من الآن فصاعدا ، من إغضابها .. »

فأجاب مستر لينتون : « لست أريد منك المزيد من النصائح . إنك تعرفين طبيعة سيدتك ، ومع ذلك شجعتنى

على مضايقتها !.. ثم لم تلمحى لى مرة واحدة عن حالتها طيلة هذه الأيام الثلاثة !.. الا ما اقسى قلبك ! إن شعورا من المرض ما كانت لتحدث بها مثل هذا التغيير ! »

فبدات ادافع عن نفسى ، شاعرة بان من الظلم ان الام بسبب المشاكسات الخبيثة التى ياتيها شخص آخر غيرى !.. نصحت قائلة : « لقد كنت اعرف ما فى طبيعة مسز لينتون من صلابة الراى وحب السيطرة والتسلط ، ولكنى لم اكن اعرف رغبتك فى تغذية طباعها الحادة الضارية والاستزادة منها !.. لم اكن اعرف اننى فى سبيل مرضاتها وتدليلها يجب ان اتغاضى عما يفعله مستر هيثكليف !.. لقد اديت واجبى كخادم امينة عندما اخبرتك ، وهاانذا اتقاضى الأجر اللائق بخادم امينة !.. حسنا ، إن ذلك يعلمنى ان اكون اشد حذرا ، وعليك فى المرة القادمة ان تجمع معلوماتك بنفسك !! »

ـ فى المرة القادمة التى تاتين لى فيها بقصة جديدة ، سوف تتركين خدمتى يا ايلين دين !

ـ احسبك لا تريد ان تسمع شيئا عن هذا الأمر بعد الآن يا مستر لينتون ؟ .. إذن فقد نال هيثكليف اذنك لمغازلة الآنسة ، وانتهاز كل فرصة يتيحها له غيابك لياتى ويسمم افكار السيدة ضدك ؟

وعلى الرغم من حالة الذهول التى كانت فيها كاثرين ، فإن ذهنها كان مرهفا وعلى وعى بحديثنا ، إذ هتفت فى حرارة : « آه » لقد لعبت ايلين دور الجاسوس الخائن !.. ان ايلين

هى عدوى الخفى فى هذا المنزل .. انت ايتها الساحرة الشمطاء ، إذن فقد كنت تجمعين السهام لترمينا نحن بها ؟ دعنى .. دعنى ، سوف اجعلها تتحسر على ما فعلته .. سوف اجعلها تلقى جزاء جحودها ! »

وكانت عيناها تومضان ، وتتوهجان فى ثورة جنونية ، وراحت تناضل فى سبيل الخلاص من بين ذراعى لينتون .. فلم احس ميلا إلى البقاء حتى تنفذ وعيدها ، وعزمت على ان انشد معونة الطبيب ، من تلقاء نفسى وتحت مسئوليتى ، فاسرعت بمغادرة الحجرة ، ثم المنزل كله .. وفيما كنت اجتاز الحديقة إلى الطريق ، فى موضع كان سور الحديقة عنده يحمل خطافا مما تعلق فيه اعنة الجياد ، لمحت جسما ابيض اللون يتحرك حركة غير منتظمة ، لا شان للرياح فى احداثها .. وعلى الرغم من اننى كنت فى عجلة ، الا اننى تلبثت ريثما افحص ذلك الشىء ، حتى لا تخامرنى الهواجس فيما بعد فتثير فى خيالى الاقتناع بان ما رايته كان عفريتا من الجان ! .. وكم كانت دهشتى وحيرتى عندما اكتشفت ، بطريق اللمس اكثر من الرؤية ، انه كان كلب مس ايزابيلا الصغير « فانى » ، معلقا فى الخطاف من رقبته بمنديل ، وفى الرمق الأخير من حياته !.. واسرعت بتخليص الحيوان المسكين ، وانزلته إلى الحديقة ، وكنت قد رايته يتبع سيدته إلى حجرتها بالطابق العلوى عندما اوت إلى فراشها ، فاخذنى العجب مما اتى به إلى الحديقة ، ومن ذلك الشرير الذى كاد ان يقتله .. وبينما كنت احل عقدة المنديل من حول الخطاف ،

بلغ مسامعى وقع حوافر جواد ينطلق بسرعة كبيرة من مبعدة .. ولكن كان لدى من الشواغل التى تملأ تفكيرى ، ما جعلنى لا أعير صوت الجواد اهتماما ، ولو انه كان صوتا غريبا فى هذا المكان فى الساعة الثانية من الصباح !

ومن حسن الحظ أن مستر كينيث كان يغادر منزله لزيارة مريض فى الريف ، عندما بلغت الشارع الذى يقيم فيه ، فما ان سمع روايتى عن مرض كاثرين لينتون حتى عدل عن طريقه وعاد معى فى الحال . وكان رجلا بسيطا صريحا لا يعرف المداورة ، فلم يخف شكه فى نجاتها من هذه الصدمة الثانية ، ما لم تكن أكثر خضوعا لتعليماته وأوامره مما بدا منها فى المرة الأولى ، ثم استطرد يقول :

ـ إسمعى يا نللى دين .. اننى لا استطيع أن امنع نفسى من الاعتقاد بأن هناك سببا خارجيا لما اصابها ، فما هذه الأحداث التى تمر « بالجرانج » هذه الأيام ؟ .. لقد بلغتنا انباء عجيبة هنا ، وفتاة قوية البنية مثل كاثرين لا يمكن أن تقع صريعة المرض بسبب شىء تافه ، كما أن هذا الطراز من الناس لا يمرضون بسهولة ، ومن العسير أن تصيبهم الحمى أو غيرها .. فكيف كانت البداية ؟

ـ سوف يخبرك السيد .. ولكنك تعرف آل ايرنشو تماما وتعرف حدة طباعهم ، التى بلغت مسز لينتون فيها أعلى مرتبة وبزتهم جميعا . وكل ما يمكننى قوله أن الأمر بدأ بشجار حاد ، وقد أصيبت بنوبة شديدة بينما كانت تمر بعاصفة من الغضب والانفعال الشديد ، أو هذه قصتها على

الأقل ، لأنها فرت من الميدان عند احتدام العاصفة وحبست نفسها فى حجرتها ، ثم رفضت أن تتناول شيئا من الطعام ، وغدت الآن تتناوبها ساعات من الهذيان تارة ، ومن الاستغراق فيما يشبه الحلم تارة أخرى . وهى تعرف المحيطين بها ولكن عقلها يمتلىء بقدر عظيم من الأفكار والأوهام .

فقال كينيث متسائلا :

ـ احسب أن مستر لينتون سوف يأسف كثيرا ؟

ـ يأسف ؟ .. إن قلبه سوف يتحطم لو أصابها سوء ! .. وأرجو الا تثير فى نفسه القلق بأكثر من القدر الضرورى !

فقال رفيقى : « حسنا ، لقد حذرته .. وعليه أن يترقب عواقب إهماله لتحذيرى ، ألم تنعقد أواصر الود والألفة بينه وبين مستر هيثكليف أخيرا ؟ »

ـ إن مستر هيثكليف يكثر من التردد على (الجرانج) ، وإن كان ذلك يرجع إلى معرفة السيدة له منذ أن كان غلاما صغيرا ، أكثر من حب السيد لصحبته .. ولكنه فى الوقت الحاضر قد أعفى من مشقة الزيارة ، بعد أن بدر منه ما ينم على طموح مزعوم إلى يد مس لينتون .. ولست اعتقد أن أحدا سوف يسمح له بزيارة البيت بعد ذلك ثانية ..

والقى الطبيب بسؤاله الثانى ، فقال :

ـ وهل قابلته مس لينتون بالاستخفاف وعدم الاكتراث ؟

فأجبته فى إحجام من متابعة الحديث فى هذا الموضوع :

ـ إنها لا تطلعنى على أسرارها ..

ــ كلا ، فهي فتاة ماكرة لا تطلع احدا على سرها ، ولكنها بلهاء حقا .. فقد سمعت من مصدر يوثق بكلامه انها كانت في الليلة الماضية ــ ويا لها من ليلة ! ــ تتمشى مع هيثكليف في الحقول الممتدة خلف منزلكم اكثر من ساعتين .. وكان يستحثها ويلح عليها الا تعود إلى المنزل ثانية ، بل ترافقه على ظهر جواده وتفر معه !.. وقد اخبرني محدثي انها لم تستطع استمهاله إلا بعد ان عاهدته بكلمة الشرف على ان تستعد لذلك في اول لقاء لهما بعد ذلك . اما متى يكون ذلك ، فان محدثي لم يسمعهما يحددان موعده .. ولكن عليك ان تنذري مستر لينتون حتى يفتح عينيه جيدا !

وملأتني هذه الأنباء بمخاوف جديدة ، فسبقت كينيث ، واسرعت اعدو عائدة إلى الدار . وكان الكلب الصغير ما زال ينبح في الحديقة ، فتخلفت لحظة ريثما افتح له البوابة ، ولكنه بدلا من الاتجاه نحو باب المنزل انطلق يعدو هنا وهناك ويتشمم العشب ، وكان على وشك ان يهرب إلى الطريق لو لم امسك به واحمله معي إلى الداخل .. وقد تحققت شكوكي عندما صعدت إلى حجرة ايزابيلا ، إذ وجدتها خالية ! .. ولو انني ذهبت إليها منذ ساعات قليلة ، فربما كان مرض مستر لينتون قد منعها من الإقدام على هذه الخطوة الطائشة ، ولكن ما الذي يمكن عمله الآن ؟.. كان هناك احتمال طفيف في إدراكهما إذا اقتفى اثرهما في الحال ، ولكني لم اكن استطيع تتبعهما بنفسي ، او اجرؤ على إيقاظ العائلة جميعا ، وإشاعة الفوضى والاضطراب في المنزل كله .. وكذلك لم يكن

في وسعي ان ابوح بالأمر للسيد الذي كانت نكبته الحالية تشغل كل افكاره ، ولم يبق في قلبه متسع لحزن جديد .. فلم اجد خيرا من ان امسك لساني وادع الأمور تجري في مجراها . وإذ كان كينيث قد وصل ، رافقته إلى حجرة السيدة ــ وقد انقلبت سحنتي ــ لاعلن مقدمه . وكانت كاثرين وقتئذ تنام نوما مضطربا ، إذ كان زوجها قد افلح في تهدئتها ، وتخفيف ثائرة نوبتها ، ووقف عند طرف الوسادة يرقب كل تبدل يطرا على اساريرها التي تعبر عن الم شديد ..

وبعد ان فحص الطبيب الحالة بنفسه ، اعرب عن امله في الوصول إلى نتيجة طيبة إذا استطعنا ان نحيطها دواما بجو من الهدوء والسكينة . وقد افضى إلي بأن الخطر الداهم لم يكن في موتها ، بقدر ما كان في إصابتها بخلل دائم في قواها العقلية !

ولم يغمض لي جفن في تلك الليلة ، وكذلك مستر لينتون .. بل لم نذهب إلى فرشنا او نحاول النوم قط . حتى الخدم استيقظوا قبل موعدهم المألوف بكثير ، وراحوا يتحركون في المنزل بخطى خفيفة مسترقة ، ويتبادلون الكلام همسا كلما مر بعضهم ببعض خلال قيامهم بمهامهم . كان كل من في الدار مستيقظا يقوم بعمله ، إلا مس ايزابيلا ، فراحوا يتهامسون عن نومها العميق ويعجبون منه !.. بل لقد سأل اخوها عما إذا كانت قد استيقظت من النوم ، وبدا متلهفا على وجودها ، وقد ساءه انها لم تبد شيئا من القلق على زوجة اخيها .. وكنت ارتعد خشية ان يبعث بي لاستدعائها ، ولكن حدث ما كفاني

مشقة أن أكون أول من يعلن خبر فرارها : فإن إحدى الخادمات ــ وهي فتاة طائشة كانت قد ذهبت إلى (جيمرتون) في الصباح الباكر لتحضر شيئا من البلدة ــ أسرعت ترتقي الدرج ، مبهورة الأنفاس ، فاغرة الفم ، واندفعت إلى داخل الحجرة ، صائحة :

ــ آه !.. رحماك يا رب !.. ماذا سيحل بنا بعد ذلك ؟.. سيدي .. سيدي .. إن سيدتنا الصغيرة ..

فبادرتها زاجرة ، وقد اشتد بي الغضب من ضجيجها :

ــ صه !.. كفى من هذه الجلبة !

وقال مستر لينتون : « اخفضي صوتك يا ماري .. ماذا هنالك ؟.. وما الذي ألم بسيدتك الصغيرة ؟ »

ــ لقد ذهبت !.. ذهبت !.. وصديقك هيثكليف هو الذي فر بها !

فصاح ادجار ذاهلا ، وهو ينهض من مقعده في انفعال شديد :

ــ هذا ليس صحيحا !.. بل لا يمكن أن يحدث قط !.. ما الذي أنبت هذه الفكرة في رأسك ؟.. وأنت يا ايلين دين ، اذهبي وابحثي عنها . هذا أمر لا يمكن تصديقه .. بل لا يمكن أن يحدث !

وكان وهو يقول ذلك ، قد سار بالخادم العجول نحو الباب ، وعاد يسألها أن تبين له الأسباب التي تجعلها تؤكد هذا الفرار .. فغمغمت تقول متلعثمة : « لماذا ؟.. لقد

التقيت في الطريق بالغلام الذي يحضر لنا اللبن ، فسألني عما إذا كانت المتاعب قد ثارت في (الجرانج) ، وحسبته يقصد مرض السيدة ، فأجبته بالإيجاب ، وعندئذ قال : « أظنكم أرسلتم من يقتفي أثرهما ؟ » ، فحملقت فيه في دهشة أدرك منها أنني لا أعرف شيئا عن الحقيقة ، وذكر لي كيف أن سيدا وسيدة توقفا عند حانوت الحداد ، على بعد ميلين من (جيمرتون) ، ليصلحا حدوة جوادهما ، بعد منتصف الليل بقليل .. وكيف نهضت ابنة الحداد لتستطلع أمرهما خفية ، فعرفتهما على الفور .. ولاحظت أن الرجل ــ وكان هيثكليف بلا ريب ، فإن أحدا لا يخطيء معرفته ــ قد دس في يد أبيها جنيها ذهبيا أجرا له على عمله . وكانت السيدة تلف باقة المعطف حول وجهها ، ولكنها طلبت جرعة من الماء ، وبينما كانت ترشفها ، سقطت باقة المعطف فرأت الفتاة وجهها جليا وعرفتها . وكان هيثكليف يمسك عنان الجواد بكلتا يديه وقد انطلقا به في سرعة عظيمة ، بالقدر الذي تسمح به وعورة الطريق ، وهما يتنكبان القرية في سيرهما . ولم تقل الفتاة شيئا لأبيها ، ولكنها نشرت الخبر في (جيمرتون) كلها هذا الصباح !

وأسرعت أتقصى الأمر في حجرة ايزابيلا ، من الناحية الشكلية ، ثم عدت لأؤيد رواية الخادم . وكان مستر لينتون قد رجع إلى مقعده بجوار الفراش ، فلما أحس بعودتي ، رفع ناظريه نحوي ، ثم خفضهما ثانية ، بعد أن قرأ في وجهي

معنى ما علاه من وجوم ، واخلد إلى الصمت ، فلم يصدر امرا او ينبس بكلمة واحدة.. فسألته قائلة :

ـ الا نحاول اتخاذ اية تدابير للحاق بها وإعادتها إلى المنزل ؟.. وكيف ترى ان نفعل ذلك ؟

فاجابني السيد : « لقد ذهبت بملء رغبتها وارادتها ، ومن حقها ان تفعل ذلك ما دام يسرها .. فلا تشغليني بأمرها بعد ذلك قط ، لانها من الآن تعد شقيقتي اسما فحسب .. لا لانني ابرا منها ، بل لانها هي التي تنكرت لي وبرئت مني .. »

وكان ذلك كل ما قاله في هذا الموضوع ، فلم يتخذ سبيلا واحدا للبحث عنها والتقصي عما تم من امرها ! ولم يذكرها على لسانه في اي وقت ، إلا عندما امرني بان ارسل إليها في منزلها الجديد ، اينما كان مقره ـ عندما يبلغني خبر عنه ـ كل ما لها في الدار من متاع ..

الفصل الثالث عشر

ظل الهاربان غائبين زهاء شهرين دون ان نسمع عنهما شيئا . وفي خلال هذين الشهرين كانت مسز لينتون فريسة لاسوأ صدمة ـ مما يسمى بالحمى المخية ـ حتى قهرتها وتغلبت عليها . وما من ام رؤوم كان يمكن ان ترعى طفلها الوحيد وتمرضه بتفان وإخلاص اكثر مما كان ادجار يرعاها ويمرضها .. كان يسهر عليها الليل والنهار ، ويحتمل في صبر لا ينضب معينه جميع المضايقات والمتاعب التي يمكن ان تنشا عن اعصاب سريعة التهيج وعقل مرتج .. وكانت فرحته وشكرانه ، عندما اعلن الطبيب زوال الخطر عنها ، لا يعرفان حدودا لانطلاقهما ، برغم ما لاحظه كينيث من ان التي انقذها ادجار من القبر سوف تجزي رعايته وعنايته بان تكون مصدر قلق دائم له في المستقبل !.. والواقع انه كان يضحي بصحته وقوته في سبيل المحافظة على حطام بشري ، لا اكثر ولا اقل . كان يقضي الساعة تلو الساعة جالسا إلى جانبها يرقب صحتها البدنية وهي ترتد إليها تدريجيا ، ويعلل النفس بالأماني الجياشة ـ الخيالية ـ في ان عقلها سوف يعود إلى توازنه الصحيح ايضا ، وانها لن تلبث حتى ترجع إلى حالتها الطبيعية التي كانت عليها من قبل ..

وكانت اول مرة غادرت فيها حجرتها ، بعد ذلك المرض الطويل ، في بداية شهر مارس التالي . وكان مستر لينتون



فتألقتا فى مرح وابتهاج ، وراحت تضم الزهور معا ، هاتفة :
ــ هــذه بواكير الزهــور فى (المرتفعــات) ..

قد وضع فوق وسادتها ، قبل أن تستيقظ فى الصباح ، حفنة من زهور الأقحوان الذهبية ، فلما أفاقت من نومها لمحتها عيناها ــ اللتان ظلتا طويلا لا تعرفان بريق السرور ــ فتألقتا فى مرح وابتهاج ، وراحت تضم الزهور معا ، هاتفة :

ــ هذه بواكير الزهور فى (المرتفعات) .. وهى تذكرنى بالنسمة العليلة ، والشمس الساطعة الدافئة ، والثلوج الذائبة .. قل لى يا ادجار ، ألا تهب نسائم الجنوب الآن ؟ .. وهل اختفت الثلوج أم كادت ؟

ــ لقد اختفت الثلوج تماما من هنا يا عزيزتى ، ولست أرى على طول تلال البرارى إلا بقعتين بيضاوين .. كما أن السماء زرقاء صافية ، والقنابر تصدح بأنغامها الشجية ، والجداول والنهيرات ملأى بالماء حتى حافتها .. لقد كنت فى مثل هذا الوقت من ربيع العام الماضى ، يا كاترين ، أتوق إلى وجودك تحت سقف هذا البيت ، ولكنى الآن أود لو أنك كنت فوق هذه التلال ، فإن الهواء يهب عليها جميلا عليلا ، حتى لأحس بأنه خليق بأن يشفيك تماما ..

فقالت المريضة : « لن أذهب إلى هناك قط إلا مرة واحدة أخرى .. وفى تلك المرة سوف تتركنى هناك ، وسوف أبقى بها أبدا . وفى الربيع القادم سوف تتوق ثانية لأن تجدنى تحت سقف هذا البيت ، وسوف تنظر إلى الوراء وترى أنك كنت سعيدا اليوم ! »

تغمرها لينتون بفيض من الملاطفات الرقيقة ، وحاول أن يبهجها بكلمات الحب والحنان ، ولكنها راحت تنظر إلى الزهور ساهمة ، وما لبثت أن تركت قطرات الدمع تتجمع على أهدابها ثم تنساب فوق وجنتيها ، لا تكف ولا تغيض .. وأدركنا جميعا أنها قد تحسنت حقا ، وأن اعتكافها الطويل فى مكان واحد هو السبب فى ذلك القنوط الذى يستبد بها ، والذى قد يفارقها لو بدلت المنظر الذى يحيط بها .. وأمرنى السيد بأن أشعل نارا فى حجرة الجلوس التى ظلت مهجورة أسابيع عدة ، وأن أضع مقعدا مريحا فى أشعة الشمس بجوار النافذة ، ثم أحضرها من الطابق العلوى .. فجلست طويلا تستمتع بالدفء الجميل ، وقد انتعشت كثيرا ــ كما توقعنا ــ من منظر الأشياء المحيطة بها ، فهى وإن كانت مألوفة لديها ، إلا أنها لا تقترن فى ذهنها بتلك الذكريات المروعة لحجرة مرضها البغيضة .. فلما حل المساء ، كانت تبدو منهوكة القوى إلى حد كبير ، ومع ذلك لم تفلح التوسلات أو وسائل الاقناع فى إغرائها على العودة إلى حجرتها ، فاضطررت إلى إعداد أريكة حجرة الجلوس لتتخذ منها فراشا لرقادها ريثما يمكن إعداد حجرة أخرى لها .. وقد أعددنا لها هذه الحجرة ــ التى ترقد أنت فيها الآن يا مستر لوكوود ــ حتى نجنبها مشقة الصعود والهبوط إلى الطابق العلوى ، فهى ــ كما تعلم ــ فى نفس الطابق الذى تقع فيه حجرة الجلوس .. وسرعان ما استعادت بعض قوتها بحيث أمكنها الانتقال من إحداهما للأخرى مستندة إلى ذراع إدجار .

آه ، لقد ظننت وقتئذ أنها سوف تشفى حقا ، ما دامت تلقى

كل هذه الرعاية والعناية . وكان ثمة سببان لأن نرجو ذلك ونتمناه ، فإن على حياتها تتوقف حياة أخرى ، كما أننا كنا نداعب الأمل فى أنه لن تمضى فترة وجيزة حتى تقر عينا مستر لينتون ويبتهج قلبه بمولد وريث له يقى أملاكه من أن تقع فى قبضة شخص غريب ..

ولا بد لى من القول بأن إيزابيلا أرسلت إلى أخيها ، بعد نحو ستة أسابيع من رحيلها ، خطابا موجزا تعلنه فيه بزواجها من هيثكليف .. وكان خطابا جافا باردا ، ولكنها ذيلته ، وبالقلم الرصاص ، باعتذار غامض ، ورجاء رقيق بأن يذكرها وأن يصفح عنها ، إذ كان تصرفها قد أغضبه ، مؤكدة أنها لم تستطع دفع الأمر وقتئذ ، وأنها الآن بعد أن تم كل شىء ، لا تملك القوة على نقض ما أبرمته . وأعتقد أن لينتون لم يرد على هذا الخطاب ، فلم يكد يمر عليه أسبوعان حتى تلقيت خطابا طويلا رأيت من العجيب صدوره من قلم عروس فرغت لتوها من شهر العسل .. وسوف أتلو عليك هذا الخطاب ، لأننى ما زلت محتفظة به ، إذ أن آثار الموتى عزيزة غالية ، إذا كانوا فى حياتهم أعزاء محبوبين :

« عزيزتى إيلين ..

« وصلت فى الليلة الماضية إلى (مرتفعات ويذرنج) ، فسمعت ــ للمرة الأولى ــ أن كاثرين كانت ، وما زالت ، تعانى مرضا خطيرا . وأحسب أنه ما ينبغى لى أن أكتب إليها ، كما أن أخى إما أن يكون شديد الغضب منى ، أو شديد الأسى

على ، بحيث لم يرد على خطابى إليه . . ومع ذلك فلا بد لى من أن اكتب إلى شخص ما ، وليس امامى من اكتب إليه سواك . . اخبرى ادجار اننى احب الدنيا باسرها فى سبيل ان ارى وجهه ثانية ، وان قلبى عاد إلى (ثرشكروس جرانج) بعد ان غادرتها باربع وعشرين ساعة ، بل انه هناك الآن ، مليئا بالمشاعر الحارة نحوه ونحو كاثرين !. . ومع ذلك فليس فى مقدورى أن الحق به (وقد وضعت خطا تحت هذه العبارة لتؤكدها) ، فلا حاجة بهما لأن يتوقعا عودتى ، وليستنتجا من ذلك ما يشاءان ، ولكن حذار أن يعزوا ذلك إلى خور فى ارادتى او فتور فى عاطفتى . .

« هذا ما اود ان تقوليه لاخى ، اما باقى الخطاب فلك وحدك . واود ان القى عليك سؤالين ، اولهما هو : كيف احتفظت على الاحتفاظ بالعواطف العادية للطبيعة البشرية عندما كنت تقيمين هنا ؟. . فاننى لا اتبين اية مشاعر يمكن ان يشاطرنى فيها اولئك الذين يحيطون بى !

« أما السؤال الثانى ، فاننى اهتم به اهتماما عظيما . وهاك هو : هو مستر هيثكليف إنسان من البشر ؟. . وإن كان إنسانا فهل هو مجنون ؟. . وإذا لم يكن ، فهل هو شيطان ؟ . . اننى لن اخبرك بالأسباب التى تجعلنى اوجه إليك هذا السؤال ، ولكنى اتوسل إليك ان تشرحى لى ـ إذا استطعت ـ حقيقة ذلك المخلوق الذى تزوجته . اعنى عندما تحضرين لرؤيتى ، ويجب ان تحضرى سريعا يا ايلين ، لا تكتبى لى ، ولكن تعالى ، وليتك تحضرين لى شيئا من ادجار . .

« واسمعى الآن كيف استقبلت فى منزلى الجديد ، الذى ادخل فى روعى ان (المرتفعات) سوف تكونه . ولست اذكر هذه الأمور التى من قبيل نقص وسائل الراحة الخارجية ، إلا لتسلية نفسى !. . فانها لا تشغل افكارى البتة إلا فى اللحظة التى اشعر فيها بالحاجة إليها . واننى لخليقة بان ارقص طربا واضحك ملء قلبى لو اننى وجدت هذا النقص هو كل ما اعانيه من شقاء ، وان ما عدا ذلك ليس إلا حلما شيطانيا رهيبا !

« كانت الشمس تغرب وراء (الجرانج) عندما استدرنا نحو البرارى ، وكانت الساعة وقتئذ ، فيما أعتقد ، قد بلغت السادسة . . فتوقف رفيقى ما يقرب من نصف الساعة ليفتش البستان ، والحدائق ، بل والمنزل نفسه ، بقدر ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وهكذا كان الظلام قد أرخى سدوله عندما ترجلنا عن جوادينا فى الفناء المرصوف « للمرتفعات » فلم يلبث ان خرج زميلك السابق الشيخ ، جوزيف ، ليستقبلنا على ضوء الشمعة الخافت . ولقد فعل ذلك فى بشاشة ولطف يضافان إلى سمعته الطيبة المعروفة !. . فقد كان أول ما فعله هو أن رفع مشعله امام وجهى مباشرة ، وراح يحملق فيه بعينين تضيقان وتفيضان خبثا ولؤما ، ثم قلب شفته السفلى ، واشاح بوجهه عنى . وبعد ذلك قاد الجوادين إلى الحظيرة ، وعاد ليوصد البوابة الخارجية بالسلاسل والأقفال ، كاننا نعيش فى إحدى القلاع القديمة !

« وبقى هيثكليف ليتحدث إليه ، اما انا فقد دخلت إلى المطبخ ، ووجدته قذرا مشوشا لا نظام فيه ولا ترتيب .

واحسب انك لو رأيته الآن لما عرفته ، فقد تغير كثيرا عما كان عليه عندما كان معهودا به إليك . وكان يقف إلى جوار الموقد غلام زرى الهيئة ، قوى البنية ، قذر الثياب ، يشبه كاثرين فى عينيها وفمها ، فقلت فى نفسى : انه ابن اخ زوجة ادجار ، ومن ثم فهو ابن اخيه حكما ، وبالتالى فانه يعد ابن اخى على نحو او آخر ، وينبغى لى ان اصافحه ، بل ينبغى لى ـ نعم ـ ان اقبله !.. فمن الصواب ان انشىء معه تفاهما طيبا منذ البداية ..

« اقتربت منه وحاولت ان اتناول يده المكتنزة قائلة :

ـ كيف حالك يا عزيزى ؟

« فاجاب فى تمتمة لم افهم منها شيئا ، وعندئذ كانت محاولتى الثانية للحديث معه :

ـ هل سنكون اصدقاء يا هيرتون ؟

« فكان جزائى على هذا الاصرار فى الحديث معه ، ان اطلق من فمه سبابا قبيحا ، وتوعدنى بأن يطلق (ثروتلر) فى اثرى إذا لم « اره عرض اكتافى » : بل لقد ايقظ كلبا ضخما ضاريا من وكره فى احد الاركان ، وراح يهمس إليه قائلا : « هيا ياثروتلر .. عليها يا ولد ! » .. ثم تحول نحوى يسالنى فى غطرسة . « والآن .. هل تذهبين لحال سبيلك ؟ »

« فدفعنى حب الحياة إلى الامتثال لأمره ، وخطوت فوق العتبة إلى الخارج لانتظر عودة الآخرين فادخل معهم . ولكن مستر هيثكليف لم يظهر فى اى مكان ، اما جوزيف ،

الذى ذهبت إليه فى الحظيرة ورجوته ان يصحبنى إلى الداخل ، فقد راح يحملق فى وجهى ويغمغم بكلام لا اسمعه ، ثم شمخ بانفه وقال : « مهلا ، مهلا . هل سمع إنسان قط بشىء كهذا ؟.. ما هذا الكلام الذى تمضغينه وتتشدقين به ؟.. وكيف يمكننى ان افهم ما تقولين ؟ » .. فظننته مصابا بالصمم ، وإن كانت خشونته وفظاظته قد اثارت اشمئزازى البالغ ، وصحت قائلة : « لقد كنت ارجوك أن تحضر معى إلى داخل المنزل .. »

ـ لا تطلبى منى شيئا كهذا .. فلدى عمل آخر اقوم به !

« وعاد يستأنف عمله ، وهو يحرك فى الوقت نفسه صفحتى مصباحه ، متأملا فى ازدراء شديد ثوبى ووجهى . (اما الاول فكان بالغ الأناقة والجمال ، واما الثانى فانى واثقة من انه كان يحمل من الحزن ما كان يوده ويشتهيه !) .. فسرت فى الفناء حول المنزل ، وولجت كوة صغيرة ، وجدت نفسى بعدها أمام باب مغلق ابحث لنفسى ان اطرقه راجية ان اجد امامى خادما آخر اكثر ادبا . وما لبث الباب أن فتح بعد فترة وجيزة ، ووقف فيه رجل طويل القامة شديد النحول ، بغير رباط للعنق ، فضلا من رثاثة الثياب التى يرتديها ، وكانت اساريره مختفية تحت كتل من الشعر المشعث الذى يملأ وجهه ويتدلى حتى يصل إلى كتفيه . وكانت عيناه ـ هو الآخر ـ تشبه عينى كاثرين ، على نحو مخيف ، وإن تجردتا من جمال عينيها .. فابتدرنى فى عبوس وصرامة :

— ما شأنك هنا ؟.. ومن انت ؟

— لقد رأيتني من قبل يا سيدي ، وكان اسمي وقتئذ ايزابيلا لينتون . غير انني تزوجت من مستر هيثكليف اخيرا ، فاحضرني إلى هنا ، بإذنك طبعا !

« فسألني ، وعيناه تقدحان شررا كذئب جائع : « هل عاد إذن ؟ »

— نعم .. لقد عدنا للتو ، ولكنه تركني بجوار باب المطبخ ، وعندما أردت الدخول ، كان ابنك الصغير يقف حارسا للمكان ، واستطاع بمعونة كلب من نوع البولدوج ان يخيفني حتى وليت هاربة ..

« فزمجر مضيفي الجديد ، قائلا : « لقد احسن الوغد الجهنمي صنعا بالمحافظة على كلمته ! » .. ثم راح يحملق في الظلام خلفي ، مؤملا أن يتبين هيثكليف ، وما لبث ان انطلق يغمغم طويلا باقذع الفاظ السباب ، والوعيد بما كان سيفعله لو ان « الشيطان » خدعه ، واخلف وعده ، فلم يعد !

« وندمت على محاولتي الدخول من هذا المدخل الثاني ، وكنت اكاد اميل إلى الفرار قبل ان يفرغ من سبابه ، ولكن قبل ان استطيع تنفيذ تلك النية ، امرني بالدخول ، ثم اوصد الباب خلفي بعد ان اغلقه . وكانت بالحجرة نار عظيمة مشبوبة ، وكان ذلك كل ما يضيء تلك الحجرة الفسيحة ، التي اكتسى بلاطها الأبيض لونا رماديا موحدا !.. اما الأطباق اللامعة البراقة التي كانت تجتذب انظاري عندما كنت احضر

للزيارة وانا بعد فتاة صغيرة ، فقد انقلب بريقها إلى قتامة كئيبة بسبب ما علاها من قذارة وتراب ، شأنها في ذلك شأن البلاط !

« وسألت هندلي ايرنشو عما إذا كان يجدر بي أن ادعو الوصيفة لترشدني إلى إحدى حجرات النوم . ولكنه لم يتعطف علي بجواب !.. كان يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، واضعا يديه في جيوبه ، وقد بدا عليه انه نسي وجودي تماما . كان من الجلي ان شرود ذهنه قد بلغ من العمق والاستغراق ، كما كان مظهره ينم على عداء للبشر جميعا ، ما جعلني أحجم عن محاولة إزعاجه مرة أخرى .

« ولا اخالك تدهشين يا ايلين مما اعتراني من شعور بالكآبة والأسى ، وانا جالسة فيما هو اسوأ من الوحدة ، في تلك الحجرة غير المضيافة ، افكر في انه على بعد اربعة اميال فحسب يقع منزلي المحبوب البهيج ، الذي يضم كل من احبهم على وجه الأرض ، وان المحيط الأطلسي قد يكون هو الذي يفرق بيننا ، بدلا من هذه الأميال الأربعة ، التي يستحيل على اجتيازها . ورحت اسائل نفسي اين اذهب لأنال قسطا من الراحة ؟.. وكان حزني ، الذي غلب كل حزن بجانبه — وارجو الا تخبري بذلك ادجار او كاثرين — ينشأ من يأسي من العثور على شخص واحد يستطيع ، او يود ، ان يكون حليفي ضد هيثكليف !.. لقد كنت انشد الملجأ والمأوى في (مرتفعات وبذرنج) ، في شيء من السرور والارتياح ، لأن ذلك الترتيب كان خليقا بأن يؤمنني من العيش معه على انفراد .

ولكنه ـ وا أسفاه ! ـ كان يعرف الناس الذين سوف نعيش بينهم حق المعرفة ، فكان لا يخشى فضولهم وتدخلهم . .

« وقضيت وقتا طويلا أليما جالسة أفكر . . ودقت الساعة الثامنة ، ثم التاسعة ، ومع ذلك كان رفيقى لا يزال يروح ويغدو من أقصى الحجرة إلى أقصاها ، وقد أحنى رأسه فوق صدره ، واستغرق فى صمت موحش ، لا تقطعه إلا همهمة خافتة ، أو تنهد مرير يفلت من بين شفتيه بين وقت وآخر . وكنت أرهف سمعى عسى أن أتبين صوت امرأة فى الدار ، وأملأ هذا الوقت الطويل بالأحزان الضارية ، والتكهنات المروعة عما ينتظرنى من مستقبل مشئوم ، وما لبثت أن عجزت عن كتمانها ، فانطلقت من بين شفتى فى أنين ونواح لم أستطع قمعها . . ولم أشعر بارتفاع صوتى إلا عندما تمهل ابرنشو فى مشيته الرصينة أمامى ، وراح يحملق فى وجهى فى دهشة من يرانى لأول مرة ، فانتهزت فرصة استعادته شعوره وانتباهه ، وصحت :

ـ إننى متعبة من سفرى الطويل وأريد الذهاب إلى الفراش . . فأين الوصيفة ، أو أية خادم أخرى ؟ . . أرشدنى إليها يا سيدى ما دامت لا تريد أن تحضر إلى !

« فأجابنى : « لا توجد هنا وصيفات أو خادمات . . وعليك أن تعنى بنفسك ! » . . وعندئذ رحت أنتحب فى أسى ، وقد أخرجنى التعب واليؤس عن وقارى ، وقلت : « ولكن أين ينبغى أن أنام إذن ؟ »

ـ سوف يريك جوزيف حجرة هيثكليف . . افتحى هذا الباب ، فتجديه هناك .

« فلما هممت بأن أطيعه ، أمسك بى فجأة ، واستطرد يقول فى أغرب صوت سمعته : « كونى فتاة طيبة ، وأوصدى باب الحجرة بالمفتاح ثم ضعى المزاليج وراءه . إياك أن تغفلى ذلك ! »

« ولم أستسغ فكرة حبس نفسى مع هيثكليف فى حجرة واحدة بمحض رغبتى ، فقلت : « حسنا . . ولكن لماذا يا مستر ايرنشو ؟ » . . فأخرج من جيب صدريته مسدسا عجيب التكوين ، إذ كانت تتصل بماسورته سكين ذات حدين مرهفين ، يحركها لولب خفى ، ثم قال :

ـ انظرى . . إن هذه شديدة الاغراء لرجل يائس !. . أليس كذلك ؟. . اننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من الصعود إلى الطابق العلوى كل ليلة ، وهذه فى يدى ، فأحاول فتح باب حجرته . . فلو وجدت الباب مفتوحا مرة ، فقد انتهى أمره ! . . اننى افعل ذلك دواما ، حتى ولو كنت فى اللحظة السابقة مباشرة أفكر فى مئات الأسباب الكفيلة بأن أحجم عن هذه المحاولة !. . وما من ريب فى أن شيطانا خبيثا لا يفتأ يستحثنى على إحباط خططى ومشاريعى ، بتحريضى على قتله !. . وانك لتناضلين هذا الشيطان عبثا مهما طال بك المدى ، فعندما يحين الوقت ، فان كل ملائكة السماء لن تستطيع إنقاذه !

« ورحت ارمق السلاح فى فضول وإمعان ، وقد طرأت على ذهنى فكرة بشعة فظيعة : فكم اكون قوية حصينة لو استطعت ان احرز مثل هذه الاداة !.. واخذتها من يده ، ورحت امر باصابعى على النصل المرهف ، فبدت عليه الدهشة من ذلك التعبير الذى ارتسم على وجهى لحظة خاطفة . لم يكن فزعا ، وإنما كان جشعا وتلهفا !.. فاسرع باختطاف المسدس من يدى ، فى حرص الشحيح ، وارجع السكين إلى مكانها ، ثم اعاده إلى مخبئه ، قائلا : « اننى لا ابالى ان تخبريه ، فدعيه ياخذ حذره ، واسهرى على حمايته !.. وارى انك تعرفين سوء ما بيننا من صلات ، فان الخطر الذى يتهدده لم يفاجئك ولم يرعك ! »

« فسالته : « ما الذى فعله هيثكليف معك ، وبماذا اساء إليك ، حتى تنطوى له على هذا الحقد المروع ؟ .. الا يكون اكثر حكمة وتعقلا ان تأمره بمغادرة الدار ؟ »

« فهدر ايرنشو بصوت كالرعد القاصف : « كلا .. وإذا اقترح ان يفارقنى ، فسوف يغدو جثة هامدة . ولو انك اغريته على هذه المحاولة ، فسوف تصبحين قاتلة !.. هل تقضى على ان افقد كل شىء ، دون أن تكون لدى الفرصة لاستعادته ؟.. وهل تقضى على هيرتون ان يعيش شحاذا ؟ آه ، يا للعنة !.. اقسم اننى سوف استعيد كل شىء ، وسوف آخذ ماله وذهبه ايضا . ثم بعد ذلك دمه !.. اما روحه فستكون من نصيب الجحيم !.. ولسوف يزداد لظاها سعيرا ، عشرة اضعاف ، عندما يحل بها هذا الضيف ! » .

« .. ولقد سبق لك أن اطلعتنى ، يا ايلين ، على طباع سيدك السابق . ومن الجلى انه على حافة الجنون ، أو انه كان كذلك ليلة الأمس على الأقل . وقد اقشعر بدنى من البقاء قريبة منه ، ورايت ان شراسة الخادم الوقح تعد سارة لى نسبيا . وكان قد عاود سيره المهموم ، فمضيت نحو الباب ، ورفعت المزلاج ، ثم مررت إلى المطبخ .. فرايت جوزيف منحنيا فوق الموقد ، يمعن النظر فى قدر كبيرة كانت تتارجح فوقه ، بينما كان على المقعد بجواره قصعة خشبية ملأى بدقيق الشوفان . وكانت محتويات القدر قد بدأت تغلى ، فتحول إلى القصعة وهو يهم بدس يده فيها . وحدست انه ربما كان يعد لنا العشاء ، وإذ كنت شديدة الجوع ، فقد عزمت على أن يكون ذلك الطعام مما استسيغ تناوله .. وهكذا صحت به ، وانا ابعد القصعة عن متناول يده :

ـ سوف أعد ، أنا ، هذا الثريد ..

« ومضيت انزع قبعتى وثوب الركوب الذى كنت ارتديه ، واستطردت قائلة : « لقد اشار على مستر ايرنشو ان اعنى بنفسى ، وسوف افعل .. فلن اقوم بدور السيدة بينكم ، حتى لا اموت جوعا ! »

« فجلس جوزيف على مقعد بعيد ، وراح يربت على جواربه المضلعة من ركبته حتى عقبه ، وهو يغمغم قائلا : « لعل هناك اوامر جديدة بعد ذلك !.. وإذا قدر لى أن اجد سيدة فوق راسى ، بعد ان اعتدت اخيرا خدمة سيدين ، فعلى الراحة

والهدوء السلام !.. انني ما فكرت قط في أن ارى يوما اضطر فيه إلى ترك المنزل القديم ، ولكني اخشى أن يكون الوقت قد حان لذلك ! »

« .. فلم اعر هذه المناحة اى التفات ، ومضيت مندمجة في عملي ، وقد تنهدت إذ ذكرت زمنا كان ما اقوم به الآن خليقا بأن يبدو اضحوكة لطيفة .. ولكن سرعان ما اضطررت لطرد هذه الذكرى ، فإن استعادة سعادتي الماضية امام ناظري كانت تسبب لي عذابا وشقاء لا قبل لي باحتماله . وكنت كلما اشتد خطر استحضار هذا الشبح من اعماق الماضي ، اسرعت في تقليب الثريد ، ومتابعة قذف قبضات الدقيق في القدر . وكان جوزيف يرقب طريقتي في الطهي بسخط متزايد ، وما لبث أن صاح قائلا : « هيرتون ، انك لن تتناول عشاءك من الثريد الليلة يا بني !.. فلن يكون إلا كتلا كبيرة جافة كقبضة يدي . ما هذا ؟.. لو كنت في مكانك لالقيت القصعة كلها بما فيها في القدر !.. ما شاء الله !.. وما هذا الدق بالمغرفة ؟.. من حسن الحظ أن قاع القدر لم يسقط في النار ! »

« واعترف أن الثريد عندما سكب في الأطباق كان غليظا خشنا . كانت اربعة اطباق هي التي اعدت للعشاء ، كما احضروا ابريقا كبيرا مملوءا باللبن الطازج ، امسك به هيرتون وراح يشرب من فوهته ، واللبن يسيل من بين شفتيه المدودتين .. فاعترضت ، ورغبت إليه في أن يأخذ نصيبه

في قدحه ، مؤكدة انني لا استطيع أن اذوق طعاما أو شرابا تتبادله الأفواه بهذه القذارة . ولكن المهرج العجوز رأى أن يبدي شعوره بالاهانة البالغة التي لحقت به وبالأسرة من ملاحظتي الدقيقة ، فراح يردد القول في تأكيد بأن « الصبي لا يقل طيبة » عني ، و « لا يقل تهذيبا ونظافة » ، ويعجب كيف استطعت أن اظهر بهذه الخيلاء وهذا الغرور !.. وفي الوقت نفسه كان الوغد الصغير مستمرا في لعق اللبن ، وهو يحدجني بنظرات نارية مملوءة التحدي ، وقد ترك لعابه يختلط باللبن في الابريق !

« عندئذ قلت : « سوف اتناول عشائي في حجرة اخرى .. ايوجد لديكم ما تسمونه حجرة الجلوس ؟ » .. فاجابني ساخرا متهكما : « حجرة الجلوس ؟.. حجرة الجلوس ؟.. كلا ، لا توجد لدينا حجرات للجلوس !.. إذا كانت صحبتنا لا تروقك ، فهناك السيد اذهبي إليه . وإذا لم يرقك السيد فها نحن تحت امرك ! » .

« فاجبته قائلة : « سوف اصعد إلى الطابق العلوي .. ارني حجرة اجلس فيها . » .. وكنت قد وضعت طبقي فوق صحفة ، كما ذهبت بنفسي فأحضرت بعض اللبن النظيف ، فنهض جوزيف بعد تأفف وتذمر عظيمين ، وتقدمني فوق الدرج ، حتى بلغنا الحجرات العلوية . وكان بين الحين والآخر يفتح بابا وينظر بداخل الحجرات التي كنا نجتازها ، وأخيرا رفع لوحا متداعيا من الخشب ، تصر مفصلاته صريرا قبيحا ، وقال :

ـ هاك حجرة تصلح لتناول عشائك فيها !.. وسوف تجدين كيسا من القمح فى الركن ، وهو كيس نظيف تماما .. ولكن إذا كنت تخشين اتلاف ثوبك الحريرى المظيم فانشرى منديلك فوقه واجلسى عليه !

« وكانت تلك (الحجرة) اشبه بجحر مصنوع من الخشب، تفوح منه رائحة الحنطة والشعير القوية ، وقد كدست حول جدرانه زكائب هذه الغلال تاركة فراغا فسيحا فى وسطه .. فالتفت إليه ، وواجهته غاضبة ، وانا اصيح به : « ما هذا يا رجل ؟ ليس هذا بالمكان الذى يصلح للنوم .. اننى اريد ان ارى حجرة نومى ! »

« فعاد يقول فى لهجته الساخرة : « حجرة النوم ؟.. لقد رايت كل ما لدينا من حجرات النوم .. إلا حجرتى » .. ثم اشار إلى « الوكر » المجاور الذى لم يكن يختلف من الاول إلا فى خلو جدرانه من الزكائب نوعا ما ، وفى احتوائه على فراش عريض منخفض ، خال من الستائر ، على احد طرفيه لحاف مصبوغ بالنيلة !

فقلت اجيبه : « وما حاجتى إلى غرفتك ؟.. احسب ان مستر هيثكليف لا يقيم فوق سطح المنزل ، اليس كذلك ؟ » .. فصاح كأنما وقع على كشف جديد : « آه !.. اهى حجرة مستر هيثكليف التى تريدين ؟.. اما كان بوسعك ان تقولى ذلك من اول وهلة ، حتى كنت اخبرك ـ بدلا من كل هذا الوقت الضائع ـ إنها الحجرة التى لن تستطيعى رؤيتها

بالذات ، لانه يوصدها دائما ولا يسمح لمخلوق بان يدخلها غيره ! »

« فلم اتمالك نفسى من القول : « ان لكم منزلا جميلا يا جوزيف ، يضم عشرة لطيفة سارة !.. وما اظن إلا ان الخلاصة المركزة لشر انواع الجنون فى العالم قد اتخذت لها مستقرا فى عقلى يوم ان ربطت مصيرى بمصائرهم وقدرى باقدارهم !.. ولكن مهما يكن من امر فان ذلك ليس موضع البحث الآن .. ان هناك حجرات اخرى ، فاناشدك الله واستحلفك بحق السماء ان تسرع فترشدنى إلى مكان اقر فيه قليلا ، اينما يكن هذا المكان ! » .

« ولم يجبنى بكلمة على هذا التوسل ، بل اخذ يهبط الدرجات الخشبية للسلم فى ضيق وتبرم حتى وقف امام حجرة ادركت من وقفته ، ومن اثاثها الممتاز ، انها خير حجرات المنزل . كانت بها سجادة !.. سجادة جيدة ، غير ان نقوشها ورسومها كانت مطموسة تحت اكداس الغبار الملبدة . وكانت بها مدفاة لصق على الجدار فوقها ورق ملون ممزق يتدلى قطعا وشرائح غير منتظمة .. وفراش عريض فاخر من خشب البلوط تحوطه ستائر فضفاضة قرمزية اللون من قماش ثمين وطراز حديث ، وإن كان من الواضح انها عانت الكثير من سوء الاستعمال ، إذ كانت اطرافها العليا غير مشدودة ، بل تتدلى فى دوائر وقد نزعت من حلقاتها ، على حين كان القضيب الحديدى الذى يحملها ينحنى كالقوس على احد

جانبى الفراش وقد تدلت الستائر منه تجرجر اذيالها على الارض .. حتى المقاعد كانت تالفة ، واكثرها مهشم تماما ! .. وكانت ثمة فجوات غائرة عميقة تشوه الواح الخشب الثمين التى تكسو الجدران ، وتدل على ارتطام اجسام صلبة حادة بها ..

« وكنت احاول ان استجمع عزيمتى للدخول إلى هذه الحجرة والاستيلاء عليها ، عندما اعلن مرشدى الأحمق أن « ها هنا حجرة السيد » .. وكنت وقتئذ قد برد طعامى ، وفترت شهيتى ونفد صبرى ، فاخذت الح عليه فى ان يدلنى على مكان الجا إليه واجد فيه وسائل الراحة .. فبدا الشيخ المتدين يقول : « واين بحق الشيطان ؟.. ليرحمنا الله !.. ليغفر لنا الله !.. اين تريدين أن تشتكى بحق الجحيم ؟! انت ايتها العروس المتعبة !.. لقد رايت كل شيء إلا حجرة هيرتون الصغيرة .. ولا يوجد فى المنزل بعد ذلك جحر صغير آخر تاوين إليه ! »

« وكان الغضب والضيق قد نالا منى ، فطوحت بالصحفة ومحتوياتها من يدى إلى الارض ، وجلست فوق قمة الدرج ، واخفيت وجهى بين يدى ، وانخرطت فى البكاء .. بينما كان جوزيف يصيح :

ـ اخ .. اخ .. مرحى .. مرحى !.. انك قد احسنت صنعا !.. سوف يتعثر السيد الآن فى هذه الأوعية المحطمة ، وسوف نسمع منه الكثير . سوف نسمع منه ما ينبغى

وما لا ينبغى .. انت ايتها الحمقاء الطائشة !.. انك تستحقين ان ينحل جسمك ويهزل من الآن حتى عيد الميلاد لإلقائك نعم الله الثمينة تحت الاقدام فى غضبك الاحمق . ولكنى لا اكون اعرف شيئا إن استطعت انت إظهار هذا الخلق السيىء طويلا! .. فهل تظنين ان هيثكليف سيسكت على هذه الفعال الطيبة ؟!.. الا ليته يضبطك الآن متلبسة !.. ليته ياتى ليرى ما فعلت !

« وهكذا ظل منطلقا فى تأنيبه لى ، بينما كان يهبط الدرج إلى وكره فى الطابق الاسفل ، حاملا الشمعة معه ، وتاركا إياى فى الظلام !.. وقد اضطرتنى فترة التفكير التى تلت هذه الفعلة الطائشة إلى الاقتناع باننى يجب ان اطامن من كبريائى وان اكبح جماح غضبى ، وان اسارع إلى إزالة آثار ما فعلت .. وما كدت اهم بالعمل ، حتى بعث لى القدر بمساعد غير متوقع ، فى شكل « ثروتلر » الذى عرفت فيه منذئذ ابن كلبنا القديم « سكالكر » ، وكان قد قضى فترة (الحضانة !..) فى « الجرانج » قبل ان يهديه ابى إلى مستر هندلى . واغلب الظن انه عرفنى ، لقد مسح انفه بانفى على سبيل التحية ، ثم اسرع إلى التهام الثريد مساعدة لى على تنظيف المكان من آثار تسرعى وطيشى .. بينما كنت انتقل من درجة إلى اخرى لاجمع قطع الفخار المحطمة ، وامسح بمنديلى رشاش اللبن المتطاير فوق السياج .. وما كدنا نفرغ من مهمتنا ، حتى سمعت وقع خطوات ايرنشو فى الممر ، فارخى مساعدى ذنبه وحشره بين فخذيه ، ثم التصق بالجدار خائفا ، على حين

اسرعت استرق الخطى إلى اقرب باب إلى فاختفيت بداخله .. وقد فشلت محاولة الكلب تجنبه ، كما ادركت ذلك من الجلبة الناشئة من عدوه السريع ، ومن عوائه الطويل الأليم .. ولكنى كنت اسعد حظا ، فقد مر بالحجرة التى اختفيت فيها مر الكرام ، ومضى إلى حجرته ثم اوصد بابها وراءه .. وفي اللحظة التالية كان جوزيف يصعد مع هيرتون ليضعه في فراشه .. وكانت الحجرة التى اتخذتها ملجأ لى هى حجرة هيرتون ، فلما رآنى الشيخ الفانى قال :

ـ ها قد وجدت حجرة لك ولكبريائك في المنزل ، كما أرى . انها خالية ، ويمكن أن تتسع لكما معا ، وحاشا لله أن يكون ثالثكما في مثل هذه الصحبة الشريرة !

« وتلقفت هذا الإيعاز بسرور بالغ ، وما كدت القى بنفسى فوق احد المقاعد بجوار النار ، حتى هومت ، ثم استغرقت في النوم .. وكان نومى هادئا عميقا ، وإن لم استمتع به طويلا ، فقد ايقظنى مستر هيثكليف ـ وكان قد رجع لتوه من الخارج ـ ليسألنى ، بلهجته الرقيقة الحبيبة ، عما افعله في هذا المكان . فاخبرته بسبب بقائى إلى هذه الساعة المتأخرة ، وهو انه كان يحتفظ بمفتاح حجرتنا في جيبه ! وكان لاستعمالى لضمير الجمع اثر رهيب ، كأننى ارتكبت إثما مبينا .. فقد راح يسب ويقسم أن الحجرة ليست حجرتى ، ولن تكون حجرتى يوما ما ، وانه سوف .. ولكنى لن اعيد على مسامعك الفاظه ، ولن اصف لك مسلكه المعتاد معى .. فهو شديد البراعة والدهاء ، ولا يقر له قرار في استثارة حقدى وكراهيتى



« وهكذا ظل منطلقا في تأنيبه لى ، بينما كان يهبط الدرج الى وكره في الطابق الأسفل ، حاملا الشمعة معه .. »

.. وانى لتأخذنى الدهشة ويستولى على الذهول كلما فكرت فى أمره ، فتكون دهشتى من العمق بحيث تطغى على خوف منه .. ولكنى أؤكد لك ان نمرا مفترسا او أفعوانا ساما لا يمكن ان يثير فى نفسى ما يثيره هو من الرعب والفزع . وقد أنبأنى بمرض كاثرين ، واتهم اخى بأنه السبب فيه ، وانذرنى باننى سوف انوب عن ادجار فى مقاساة الألم والعذاب .. حتى يستطيع ان يضع يده عليه !

« اننى اكرهه ، اكرهه .. يا لى من تعسة شقية !.. وكم كنت حمقاء طائشة ، ولكن حذار ان تلفظى بكلمة من ذلك لأحد فى (الجرانج) .. وسوف اتوقع حضورك يوما بعد يوم .. وكل ما أرجوه الا تتخلى عنى وتخيبى أملى ..

« ايزابيلا »

الفصل الرابع عشر

ما إن فرغت من تلاوة تلك الرسالة ، حتى ذهبت إلى السيد فأخبرته بأن اخته قد وصلت إلى (المرتفعات) وانها ارسلت لى خطابا تعرب فيه عن اساها لما اصاب مسز لينتون ، وعن رغبتها الحارة فى رؤيته ، ورجائها فى ان يرسل إليها معى ، فى اقرب وقت مستطاع ، ما يدل على صفحه عنها !

فقال لينتون : « صفحى عنها ؟.. ليس لدى ما أصفح عنها من اجله يا ايلين .. ويمكنك ان تذهبى إلى (مرتفعات ويذرنج) بعد ظهر اليوم ، إذا شئت ، وان تقولى لها اننى لست غاضبا منها ، إنما انا آسف من اجلها ، حزين لأنى فقدتها .. سيما واننى لا أستطيع ان اعتقد البتة بأنها سوف تكون سعيدة . ومهما يكن من أمر ، فإن ذهابى لرؤيتها لا يمكن ان يكون موضع تفكير ، فإن فراقنا ابدى .. اما إذا رغبت حقا فى ان تسدى إلى جميلا ، فدعيها تقنع الوغد الذى تزوجت منه بأن يترك البلاد ! »

فسألته متوسلة : « وهلا بعثت إليها برقعة صغيرة يا سيدى ؟ »

ـ كلا ، فلا حاجة بنا إلى ذلك .. وإن اتصالى بعائلة هيثكليف امر لا يمكن تحقيقه ، كاتصاله بعائلتى ، ولن يكون له وجود قط ..

وقد احزننى برود مستر ادجار كثيرا ، ورحت اكد ذهنى ، على طول الطريق من (الجرانج) ، بحثا عن الوسيلة التى

اخفف بها من وقع كلماته ، عنفها ارددها على مسامعها !..
وكيف اهون من رفضه كتابة بضع كلمات يسرى بها عن
ايزابيلا . واحسب انها كانت تترقب حضورى منذ الصباح ،
إذ رايتها تنظر من خلال سجاف النافذة ، بينما كنت اجتاز
الطريق المؤدية إلى الحديقة ، فلما اومات إليها براسى محيية ،
رايتها تتراجع عن النافذة ، كانها تخشى ان يراها احد !
ودخلت البيت دون ان اطرق الباب ، فما رايت فى حياتى
منظرا ابشع ولا افظع من المنظر الذى يبدو فيه منزلنا القديم
المرح !.. ولكن لا بد لى من الاعتراف باننى لو كنت فى مكان
السيدة الشابة لقمت ، على الأقل ، بكنس الأرض حول
الموقد ، ولمسحت الموائد بقطعة من القماش .. ولكنها كانت
قد تشبعت بروح الإهمال التى تسود كل من يحيط بها .
وكان محياها الجميل شاحبا مصفرا ، يبدو عليه الضعف
وقلة الاكتراث ، وشعرها مشعثا غير مرجل ، وقد تدلت
بعض غدائره فى غير نظام ، بينما عقص باقيها حول راسها
فى إهمال . اما هندامها فيكفى اننى رجحت انها لم تلمس
ثوبها منذ مساء اليوم السابق !.. ولم يكن هندلى هناك ،
اما مستر هيثكليف فكان جالسا إلى منضدة ، يقلب بعض
الأوراق فى مفكرته ، ولكنه بادر إلى النهوض عند ظهورى ،
وسالنى عن حالى ، فى كثير من الود ، ثم قدم لى مقعدا . وكان
هيثكليف الشىء الوحيد الذى يبدو فى هذا المكان نظيفا
محترما ، حتى لقد خطر لى ان مظهره لم يكن يوما خيرا مما
هو الآن !.. ولقد بلغ من عظم ما فعلته الاحداث من تبديل

مركزيهما ، انه كان يبدو فى نظر الغريب الذى لا يعرف
منشاه ، كانما ولد وربى فى وسط النبلاء والأشراف ، على
حين ان زوجته كانت تبدو كانها امراة صغيرة نشات وسط
الأقذار والإهمال وسوء التربية !

وتقدمت ايزابيلا لتحيتى فى لهفة وقلق ، ومدت إلى إحدى
يديها لتتلقى الخطاب المنتظر ، فهززت راسى .. ولكنها لم تفهم
تلميحى ، وتبعتنى إلى خزانة ثياب كنت اهم بان اضع فيها
قبعتى ، وهى تتوسل إلى فى همس بان اعطيها للتو ما احضرته
معى .. وقد حدس هيثكليف معنى مناوراتها ، فقال :

ـ إذا كان معك شىء لايزابيلا ، ولا بد ان يكون معك شىء
لها يا نللى ، فاعطيه لها ، ولا حاجة بك إلى اعتباره سرا ،
فلا اسرار بيننا ..

ورايت من الأفضل ان اذكر الحقيقة من فورى ، فاجبت :
« آه !.. ليس معى شىء البتة . وقد طلب إلى سيدى ان
اخبر شقيقته بانها لا ينبغى ان تتوقع منه زيارة او خطابا فى
الوقت الحاضر .. وهو يبعث إليك ، يا سيدتى ، بحبه
وتمنياته لك بالسعادة ، وصفحه عما سببت من احزان ،
ولكنه يرى انه ينبغى بعد الآن قطع كل صلة بين اهل منزله
واهل هذه الدار ، تلك الصلة التى لا يرجى من قيامها
امل قط !

فارتجفت شفتا مسز هيثكليف رجفة طفيفة ، وعادت إلى
مقعدها بجوار النافذة ، اما زوجها فقد وقف بجوار الموقد ،

قريبا منى ، وبدا يلقى على الأسئلة عن حالة كاثرين ، فأخبرته بما وجدت من الأليق أن أقوله عن أسباب مرضها ، ولكنه أمطرنى بوابل من الأسئلة المتلاحقة حتى انتزع منى الحقائق المتعلقة بمنشأ هذا المرض . وقد وجهت إليها اللوم الذى تستحقه ، لأنها هى التى جلبت ذلك كله إلى نفسها ، ثم ختمت حديثى بالأمل فى أن يحذو حذو مستر لينتون ، ويتجنب اى تدخل فى شئون عائلته فى المستقبل ، سواء أكان للخير أم للشر .. قلت له :

ـ لقد بدأت مسز لينتون الآن تتماثل للشفاء ، ولكنها لن تعود إلى حالتها الأولى قط ، بعد أن نجت من الموت بمعجزة . وإذا كنت حقا تحترمها وترجو لها الخير ، فعليك أن تتجنب اعتراض طريقها مرة أخرى . بل انه ليجدر بك أن ترحل عن البلاد نهائيا ، وهو أمر لن تأسف عليه قط ، فإن كاثرين لينتون الآن تختلف عن صديقتك القديمة كاثرين ايرنشو ، اختلاف هذه السيدة الشابة !.. لقد تغير مظهرها تغيرا كبيرا ، وكذلك خلقها وطباعها . والرجل الذى يجد نفسه مضطرا إلى عشرتها ، بحكم الضرورة ، لا يقيم أود عاطفته ، من الآن فصاعدا ، إلا على ذكرى ما كانت عليه يوما من الأيام ، وبدافع من الإنسانية والشعور بالواجب !

فاصطنع هيثكليف الهدوء ، وعقب على كلامى قائلا :

ـ من الجائز أن يكون الأمر كذلك . من الجائز حتما ألا يجد سيدك شيئا يتعلق به سوى إنسانيته وشعوره

بالواجب ، ولكن تتصورين أننى أدع كاثرين لإنسانيته وواجبه ؟.. انك قبل أن تغادرى هذا المنزل يجب أن تعدينى بتهيئة لقاء بينى وبينها . واعلمى أنه سواء رضيت أنت أم أبيت ، فإننى سوف أراها حتما .. فماذا تقولين ؟

ـ أقول يا مستر هيثكليف إنه لا ينبغى لك أن تطلب إلى ذلك ، ولن تنال شيئا منه عن طريقى قط ، فإن لقاء آخر بينك وبين السيد سوف يقتلها حتما !

فاستطرد يقول دون أن يبالى باعتراضى :

ـ ربما أمكن تجنب ذلك بمساعدتك . أما إذا نشأ أى خطر من وراء مثل هذا اللقاء ، أى إذا كان سيدك سببا فى تعكير صفوها مرة أخرى ، فأحسبنى أكون على حق لو مضيت معه إلى أبعد الحدود . وإننى ، يا نللى ، أرجو أن تكونى صادقة معى فتخبرينى هل تتألم كاثرين كثيرا إذا فقدته ؟.. فإن الخوف من إيلامها هو الذى يغل يدى عن المساس به .. وهكذا ترين الفرق بين شعورى وشعوره : لو كان فى مكانى ، وكنت فى مكانه ـ برغم أننى أمقته مقتا أحال حياتى إلى مرارة متصلة ! ـ لما رفعت عليه يدا . ربما كنت لا تصدقين ما أقول ، كما هو ظاهر فى محياك ، ولكن إلى أننى ما كنت لأحرمه من صحبتها طالما كانت راغبة فيها ! .. أما فى اللحظةالتى تكف فيها عن التعلق به ، فإنى أمزق قلبه تمزيقا ، وأنهل من دمه حتى أرتوى !.. ولكن إلى أن يحدث ذلك ـ (وإذا لم تصدقينى فانك لا تعرفيننى حقا) ـ إلى أن

يحدث ذلك فانى افضل ان أموت موتا بطيئا قبل ان أمس شعرة واحدة من رأسه !

فقاطعته قائلة : « ومع ذلك فانك لا تتورع عن تحطيم كل امل فى شفائها التام ، بإقحام نفسك على ذاكرتها الآن ، بعد أن اوشكت على ان تنساك ، وإقحامها هى فى دوامة جديدة من المتاعب والمنازعات ! »

ـ وهل تزعمين انها اوشكت على نسيانى ؟ . . اواه يا نللى! . . انك تعلمين أن ذلك غير صحيح ، وانها لم تنسنى قط . وانت تعلمين ـ كما اعلم ـ انها إذا فكرت فى لينتون مرة ، تفكر فى الف مرة ! . . ولقد ظننت شيئا من هذا القبيل فى فترة من اشقى أيام حياتى ، وكان هذا الظن لا يفتأ يراودنى عندما عدت إلى هذه الأنحاء فى الصيف الماضى . ولكن ما من شىء يجعلنى اتقبل هذه الفكرة الفظيعة مرة اخرى ، إلا ان اسمعها تؤكدها لى بنفسها . وعندئذ لن يكون لينتون شيئا فى ناظرى ، ولا هندلى ، ولا اى حلم من تلك الأحلام التى طالما اشتهيتها . . عندئذ سوف ينطوى مستقبلى كله تحت كلمتين : الموت ، والجحيم . . فسوف يصبح وجودى كله جحيما إذا فقدتها ! . . ومع ذلك فقد كنت غرا ابله عندما تصورت لحظة انها تقدر تعلق ادجار بها اكثر مما تقدر تعلقى انا بها . . وإذا كان يحبها بكل ما فى كيانه الضئيل من قوة ، فلن يحبها فى مدى ثمانين عاما كحبى لها يوما واحدا ! وان لكاثرين قلبا عميقا كقلبى ، والأيسر ان تجمعى مياه البحر فى معلف الجواد هذا ، من ان يستأثر ادجار بعاطفتها كلها !

هراء !. . إنه لا يكاد يسمو درجة فى الاعزاز لديها عن كلبها او جوادها !. . إنه لا ينطوى على شىء يجعله محبوبا ، مثلى ، فكيف تستطيع ان تحب فيه شيئا ليس من خصائصه ؟

فصاحت ايزابيلا فى اندفاع مفاجىء :

ـ إن كاثرين وادجار يتبادلان الحب كأى اثنين من الناس . وليس من حق احد ان يتحدث عنهما على هذا النحو . كما اننى لا استطيع السكوت على سماع اخى يبخس قدره إلى هذا الحد !

فاجابها هيثكليف فى ازدراء :

إن اخاك مولع بك اشد الولع ايضا ، اليس كذلك ؟ . . ومع ذلك فإنه يتنكر لك ويتركك تهيمين على وجهك فى الدنيا تحت رحمة الأقدار ، فى سهولة عجيبة !

ـ إنه لا يدرى شيئا عما اقاسيه من آلام ، لاننى لم اخبره بذلك . .

ـ إذن فقد اخبرته بشىء آخر . . لقد كتبت إليه ، اليس كذلك ؟

ـ لقد كتبت إليه لأخبره بزواجى ، وقد رايت خطابى بنفسك . .

ـ ولم تكتبى شيئا آخر منذ ذلك الحين ؟

ـ كلا . .

فتدخلت قائلة : « ان سيدتى الشابة تبدو حزينة وفى حالة سيئة بسبب تغير حالتها . والظاهر ان حب » بعض

الناس » قد تضاءل كثيرا بالنسبة إليها . وربما كان فى وسعى ان احدس من هم هؤلاء الناس ، ولكنى لن اسميهم ! »

فقال هيثكليف : « احسب ان الذى تضاءل هو حبها هى ، فقد فسد خلقها حتى غدت مجرد امراة مهملة مشاكسة . بل لقد تعبت سريعا من محاولة إدخال السرور على ، على نحو غير مألوف . وقد يصعب عليك تصديق ما اقول ، ولكنها فى صبيحة يوم عرسنا نفسه كانت تبكى وتريد العودة إلى منزلها ! .. ولكنى سوف اريها كيف توطن نفسها على العيش فى هذا المنزل ، والرضى بما قسم لها فيه ، وسوف اعمل بوسائلى الخاصة على منعها من إلحاق العار بى بتجوالها خارجه ! » .

فأجبته قائلة : « حسنا يا سيدى . ارجو ان تدخل فى اعتبارك ان مسز هيثكليف اعتادت ان تجد من يعنى بها ويقوم بخدمتها ، وانها نشأت وربيت كابنة وحيدة مدللة يسارع الجميع إلى خدمتها . لذلك ينبغى ان تحضر لها وصيفة ترعاها وتعمل على تنظيف المنزل وترتيبه . كما ينبغى ان تحسن معاملتها وان تكون بها رفيقا ، فمهما كان رأيك فى مستر ادجار ، فإنك لا تستطيع ان تشك فى قدرتها على العواطف القوية ، وإلا لما تركت الراحة والرفاهية والأصدقاء فى منزلها القديم وأتت راضية لتعيش معك فى برية موحشة كهذا المنزل ! » .

ـ لقد هجرت ذلك كله تحت تأثير الأوهام التى صورتنى فى عينيها كبطل من ابطال القصص والروايات الغرامية ،

متوقعة أن تجد من إخلاصى ووفائى وشهامتى ما يشبع رغباتها إلى درجة غير محدودة . وإن إصرارها الأحمق على اعتناق فكرة خيالية عن خلقى ، وتصرفها الأخرق على أساس تلك الأحاسيس التى كانت تنميها وتغذيها فى نفسها ، ليجعلنى انظر إليها كمخلوق ليست به ذرة من العقل . ولكنى أحسبها قد بدأت تعرفنى على حقيقتى أخيرا ! .. فلم أعد أرى منها تلك البسمات البلهاء ، ولا تلك الحركات السخيفة التى تشكل بها وجهها ، والتى كانت تثيرنى بها فى بادىء الأمر . كما لم اعد المح عليها ذلك العجز الأخرق عن تمييز ما إذا كنت جادا أم هازلا عندما كنت ابدى لها رأيى فيها وفى افتتانها بى ! .. ولقد كان جهدا باهرا من الفطنة وبعد النظر أن تكتشف اننى ما احببتها قط ! .. فقد كنت اعتقد ، يوما من الأيام ، ان أية دروس تتلقاها على يدى لا يمكن ان تكفى لكى تعى ذلك وتفهمه . ومع ذلك فيبدو انها قد وعته إلى حد ما ، إذ اعلنت لى هذا الصباح ـ كما لو كانت قد وقفت على اكتشاف مروع ـ اننى قد نجحت فعلا فى إثارة كراهيتها لى ! .. وهذا لعمرى عمل جبار يحتاج إلى قوة خارقة كقوة هرقل ! .. ولو امكن اتمامه لاستحق منى الشكر والحمد ! .. فهل بوسعى أن اثق فى بتأكيدك هذا يا ايزابيلا ؟ انت واثقة حقا من انك تكرهيننى ؟ وهل لو تركتك وحدك يوما او بعض يوم ، لا تعودين إلى ضارعة باكية ؟.. واحسب انها كانت تود لو تظاهرت بالحنان والرقة أمامك يا نللى ، فإن كشف الحقيقة عارية مجردة لما يجرح كبرياءها وغرورها ، ولكنى لا أبالى لو عرف الناس جميعا أن

الحب كان من جانبها وحـــدها ، واننى ما كذبت عليهـــا او
تظاهرت بحبهـــا قط . وليس فى وســـعها أن تتهمنى باننى
اظهرت لها رفقا ولينا كاذبين خداعين ، فإن اول شىء رأته
منى عندما غادرت (الجرانج) هو اننى شنقت كلبها الصغير ،
ولما توسلت إلى أن ابقى عليه ، كانت أولى كلماتى التى نطقت
بها اننى اعربت عن رغبتى فى شنق كل من يمت إليها بصلة ،
إلا شخصا واحدا ! .. ولعلها اعتبرت هـــذا الاستثناء منصبا
عليها هى ! .. ولكن قسوتى ووحشيتى لم تثر الاشـــمئزاز
فى نفسها ، واحسب ان فى اعماقها إعجابا فطريا بها طالما ظل
شخصها الغالى بمنأى عن الأذى ! .. والآن ، الا ترين ان
هذه الكلبة الذليلة الحمقاء قد بلغت أعلى ذرى الســـخف ،
واروع آيات الغباء عندما راودها ذلك الحلم الأخرق باننى
يمكن أن احبهـــا ؟ .. أخبرى ســـيدك ، يا نللى ، باننى لم
الق قط فى حياتى بأسرها ، شيئا حقيرا خســـيسا مثلها ..
بل إنها لتشين اسم لينتون . لقـــد كنت أخفف من قســـوتى
احيانا ــ لأن التفنن كان يعوزنى فى إستنباط وسائل تعذيبها ــ
فكنت اتراخى فى اختبار اقصى ما يبلغه احتمالها ، ومع ذلك
كانت تزحف على ركبتيها فى خضوع وتذلل . ولكن أخبرته
ايضا ان يريح قلبه الأخوى وسلطته القضائية ، فاننى التزم
حدود القانون بدقة بالغة ، متجنبا حتى هـــذه اللحظـــة كل
ما يعطيها الحق فى طلب التفرقة بيننا . والأكثر من ذلك انها
لن تشكر احـــدا على إبعـــادها عنى ، ولكنها إذا رغبت فى
الذهاب ، فعلى رســـلها ! .. فإن المضـــايقات التى يثيرها
محضرها النكد ، تطغى على المتعة المشتقة من تعذيبها ..

فقلت له : « هذا يا مستر هيثكليف كلام رجـــل مجنون ،
واغلب الظن ان زوجتك قد اقتنعت بجنونك ، ولهذا الســـبب
احتملت عشرتك حتى الآن ! اما وقد قلت الآن إن لهـــا الخيار
فى الذهاب ، فلا شك فى انها سوف تفيد من هذا التصريح ..
واحسب يا سيدتى انك لست مفتونة مسلوبة اللب بحيث
تبقين معه بملء اختيارك ، اليس كذلك ؟ » .

فانبعثت ايزابيلا تقول ، وقد تطاير من عينيها شرر الحقد
والغيظ ، حتى لم يعـــد لدى اى شك ، عنـــد رؤيتهما وفهم
التعبير الذى ارتسم فيهما ، فى النجاح التام الذى كللت به
محاولات زوجها ليجعلها تمقته :

ــ حذار يا ايلين ! لا تصدقى كلمة واحدة مما يقول .. إنه
شيطان كذوب ، بل وحش تجرد من صفات البشر ! .. لقد
اخبرنى مرة قبل الآن ان بوسعى ان اتركه ، فاقـــدمت على
المحاولة ، ولكننى لا اجرؤ الآن على إعادتها مرة اخرى ! ..
فقط عدينى يا ايلين الا تذكرى كلمة من حديثه الشائن لاخى او
لكاثرين .. فمهما ادعى امامك ، فإنه إنمـــا يســـعى لإثارة
اليأس والقنوط فى نفس ادجار ، ويقول إنه تزوج منى حتى
تكون له السيطرة عليه .. ولكنه لن ينال هـــذه السيطرة ،
فسوف أموت قبل ان يحقق امنيته هـــذه ! .. وشد ما ارجو ،
وادعو الله ، أن ينسى حذره الشيطانى مرة ، فيقتلنى .. فإن
المتعة الوحيدة التى اتصورها ، هى أن أموت ، او اراه ميتا !

فقال هيثكليف : « صه ! .. كفى هذا الهراء الآن . وعليك
يا نللى أن تذكرى كلماتها هذه إذا ما دعيت للشهادة فى المحكمة

.. ثم تأملى هذه السحنة المقلوبة ! لقد قاربت الدرجة التى تعجبنى وتوافقنى ! .. كلا يا ايزابيلا ، انك لا تصلحين الآن لحماية نفسك ، ولا تؤمنين عليها . ولما كنت حاميك الشرعى ، فلابد لى من حجزك تحت حراستى ، مهما كان هـذا الالتزام بغيضا منفرا . والآن ، اصعدى إلى الطابق العلوى ، فإن لدى شيئا اريد أن اقوله لايلين دين سرا . كلا ، ليس هـذا هو الطريق ، إنما قلت لك اصعدى ! .. لماذا ؟ تعالى اريك طريق الصعود يا طفلتى العزيزة ! » .

ثم امسك بها ، وراح يجرها حتى طوح بها خارج الحجرة ، وعاد ليغمغم قائلا : « إننى خـلو من الشـفقة ، مجـرد من الرحمة ! .. وكلما ازدادت الديدان تلويا وتوجعـا ، ازداد حنينى إلى سحقها وإخراج احشائها ! .. ارايت الطفل عندما تنبت اسنانه ، وكيف يتلهف على العض والمضغ ؟ .. ان بى لهفة معنوية مماثلة ! .. ولكن طحنى وتحريق اسنانى يزدادان قوة وحمية ، بنسبة ازدياد الالم بالفريسة ! » .

فقلت وقد اخذت تبعتى من المشجب : « وهل تفهم لكلمة الشفقة معنى ؟ .. بل هل شعرت قط فى حياتك بلمسة منها فى قلبك ؟ » .

فقاطعنى قائلا ، وهو يرى عزمى على الرحيـل : « ضعى هذه جانبا ، فلم يحن وقت انصرافك بعد . والآن اسـمعى يا ايلين : إننى لا بد لى من ان اقنعـك ، او ارغمـك ، على مساعدتى فى تحقيق ما عقدت عليه العزم من مقابلة كاثرين ، بغير إهمال او توان . واقسم لك إننى لا اضمر شرا او ضرا ،

وليس بى من رغبة فى إثارة المشاكل ، او إغضاب مستر لينتون او إهـانته .. فكل ما اريده هو ان اسـمع من فم كاثرين كيف تجد نفسها الآن ، ولماذا تعرضت لهذا المرض الشديد ، وان اسالها إن كان بوسعى ان اؤدى لها خدمة او اكون ذا نفع لها على اية صورة . لقد قضيت فى حديقة (الجـرانج) ليلة الامس ست ساعات متوالية ، وسوف أعود إليها الليلة ايضا . بل اننى لن اكف عن ارتياد المكان كل ليلة ، وكل يوم ، حتى اجد فرصة لدخـوله . ولو التقى بى ادجـار لينتون ، فلن اتردد فى ان اصرعه ، واكيـل له من الضربات ما يكفى لبقائه بلا حراك مدة بقائى معها ! .. اما إذا تعرض لى خدمه ، فسوف ارغمهم على مغادرة المنزل مهددا إياهم بهذا المسدس . ولكن الا ترين من الأفضل ان تمنع اسـباب احتكاكى بهم او بسيدهم ؟ .. ان فى وسعك ان تفعلى ذلك فى يسر . سوف أنذرك بحضـورى ، وعندئذ يمكن لك ان تهيئى لى سـبيل الدخول ، دون ان يحس بى احد ، بمجرد ان تجديها بمفردها ، ثم ترقبين المكان حتى أبرحه . وثقى ان ضميرك سيرتاح إلى ذلك تماما ، لانك فى الواقع إنمـا تحولين دون وقوع اضرار كثيرة ! » .

فاعترضت على ادائى دور الخائنة فى منـزل مخدومى ، فضلا عن اننى بذلك إنما استحث قسوته وانانيته على تدمير هدوء مستر لينتون وراحتها ، مرضاة له وإشباعا لرغباته .. ثم اردفت قائلة :

ـ إن اى حادث عادى يحدث لديها اضطرابا اليما ، فقد

أصبحت أعصابها كلها شديدة التوتر ، ولا يمكنها أن تحتمل المفاجأة . إننى واثقة من ذلك ، فلا تزد إلحاحا وإصرارا يا سيدى ، وإلا اضطررت لإخبار سيدى بتدبيراتك ، وسوف يتخذ الإجراءات الكفيلة بحماية منزله وساكنيه من مثل هذا التطفل غير المرغوب فيه !

صاح هيتكليف : « فى هذه الحالة سوف أتخذ أنا الإجراءات الكفيلة بسجنك هنا يا امرأة ! .. فلن تغادرى (مرتفعات ويذرنج) حتى صباح الغد . وإنها لخرافة سخيفة أن تزعمى أن كاثرين لا يمكن أن تحتمل رؤيتى . أما مفاجأتى لها ، فهذا أمر لا أوده ، وعليك أن تعديها للقائى ، وتسأليها الإذن لى بالدخول .. ثم انك تقولين إنها لا تذكر اسمى قط ، وان أحدا لا يذكره أمامها .. فلمن تريدين ان تذكر اسمى ما دام الحديث عنى يعد محرما فى منزلها ؟ .. إنها تظنكم جميعا جواسيس زوجها عليها . أجل ، لست أشك أنكم حولها كزبانية الجحيم ! .. وإنى أحس فى صمتها ، كأى شىء آخر من أحوالها الآن ، مبلغ ما تعانيه هناك وتشعر به . وأنت تقولين إنها غالبا ما تبدو قلقة لا تستقر على حال من اللهفة والتوجس ، فهل يعد ذلك دليلا على الهدوء الذى لا تريدين منى أن أعكر صفوه ؟ .. وقد تكلمت عن عقلها المضطرب ، فكيف يمكن أن تكون غير ذلك ، بحق الشيطان ، وهى تقاسى هذه العزلة المروعة ؟ .. ثم ذلك المخلوق التافه الحقير الذى يرعاها بدافع من الواجب والإنسانية .. من الشفقة والإحسان ! .. أن بوسعه أن يغرس شجرة بلوط فى أصيص

زرع صغير ، ويتوقع منها أن تنمو وتترعرع ، إذا تصور أنه يستطيع أن يرد إليها قواها وصحتها فى تربة رعايته التافهة الضحلة . والآن ، دعينا ننتهى من الأمر حالا ، فهل تفضلين البقاء هنا ، وتتركيننى أشق طريقى إلى كاثرين فوق جثث لينتون وخدمه ؟ .. أم تكونين صديقتى ، كما كنت دائما حتى الآن ، فتفعلين مارجوتك أن تؤديه لى ؟ .. ولكن عليك أن تختارى أحد الطريقين على الفور ، لأننى لا أرى سببا يدفعنى إلى التردد والتباطؤ دقيقة أخرى إذا كنت تصرين على التشبث بعنادك وسوء خلقك ! » .

حسنا .. لقد ظللت أجادله وأتوسل إليه طويلا ، يا مستر لوكوود ، ورفضت رفضا قاطعا كل ما طلبه منى أكثر من خمسين مرة ! .. ولكنه أرغمنى أخيرا ، بعد جدال طويل ، على اتفاق بيننا ، فتعهدت له بأن أحمل خطابا منه إلى سيدتى ، ووعدته ــ فى حالة موافقتها ــ بأن أبلغه بغياب سيدى عن المنزل ، فى أول مرة يغيب عنه فيها ، والموعد الذى يستطيع فيه الحضور ودخول البيت كيفما شاء .. ولكنى لن أكون هناك ، كما أن زملائى الخدم سيخلون الطريق بالمثل . فهل كان ما فعلته خطأ أم صوابا ؟ .. أغلب الظن أنه كان تصرفا خاطئا ، وإن كان من ناحية أخرى نافعا مثمرا ، فقد ظننت أننى بامتثالى لرغباته إنما أحول دون انفجار الموقف من جديد ، كما ظننت أن ذلك اللقاء قد يحدث رد فعل طيب فى مرض كاثرين العقلى . ولكنى عدت فتذكرت انتهار مستر أدجار الصارم لى وتحذيره إياى من نقل القصص والأحاديث .

ورحت أحاول التهوين من شأن المخاوف التى تنازعتنى من جراء هذا الأمر ، بأن أخذت أؤكد لنفسى ، مرة بعد مرة ، أن هذه الخيانة لثقة سيدى ــ إذا كان مسلكى يستحق هذه التسمية القاسية ــ ينبغى حتما أن تكون الأخيرة . وكانت رحلة العودة إلى الدار أشد كآبة وحزنا من رحلة الذهاب ، وانتابتنى الهواجس من كل ناحية قبل أن أقتنع نفسى ، أو أرغمها ، على وضع الرسالة بين يدى مسز لينتون .

« ولكن ها هو ذا كينيث قد حضر ، وسأنزل إليه لأخبره بتقدمك الحثيث فى طريق الشفاء . أما قصتى « المملة » ، فلنرجئها الآن ، وسوف تصلح لقطع الوقت فى صباح يوم آخر »

وبينما كانت المرأة الطيبة تنزل لاستقبال الطبيب ، كنت أقول لنفسى : أجل ، إنها قصة مملة ، وكئيبة موحشة فى الوقت نفسه ، وليست من النوع الذى كنت خليقا باختياره لتسليتى . ولكن لا بأس ، فلسوف أستخرج أطيب العقاقير من أعشاب « مسز دين » المريرة !.. ولكن على ــ قبل كل شىء ــ أن أحذر ذلك السحر الذى يكمن فى عينى كاترين هيثكليف البراقتين .. فسوف أجد نفسى فى ورطة عجيبة لو سلمت قلبى لهذه الشابة الحسناء ، ثم تبين أن الابنة ليست إلا صورة طبق الأصل من أمها !

* * *

الفصل الخامس عشر

مضى أسبوع آخر .. وازدادت بى الأيام اقترابا من الصحة الكاملة ، والربيع البسام . وقد فرغت من سماع قصة جارى كاملة ، فى جلسات مختلفة كانت مدبرة المنزل تختلسها بين مشاغلها العديدة الأخرى . وسوف أمضى فى سردها ، مستخدما كلماتها ذاتها ، مع قليل من التركيز ، فإنها فى الواقع قصاصة بارعة ، ولا أحسبنى قادرا على تحسين أسلوبها .. قالت :

« فى ذلك المساء ، مساء زيارتى « للمرتفعات » ، كنت أحس بوجود مستر هيثكليف قريبا من المنزل ، كما لو كنت أراه بعينى ، فتجنبت الخروج من الدار ، لأننى كنت ما أزال أحمل خطابه فى جيبى ، وكنت راغبة عن سماع المزيد من الوعيد أو التأنيب . كنت قد قررت ألا أسلم الخطاب حتى يغادر السيد المنزل إلى أى مكان ، لأنه لم يكن فى وسعى أن أحدس كيف يكون أثره على كاترين . وكانت النتيجة أنه لم يصل إليها إلا بعد انقضاء ثلاثة أيام كاملة . وكان الرابع يوم الأحد ، فأحضرت الخطاب إلى حجرتها بعد أن ذهبت العائلة كلها إلى الكنيسة ، ولم يبق فى الدار ــ عداى ــ إلا رجل من الخدم ترك ليساعدنى فى الأعمال المنزلية . وكنا عادة نعمد إلى اغلاق الأبواب خلال ساعات القداس ، ولكنى يومئذ انتهزت فرصة دفء الجو وروعته ، فتركتها مفتوحة جميعا ، كما أننى ــ وفاء بوعدى ، إذ كنت أعرف تماما من الذى سوف يقدم إلينا ــ

قلت لرفيقى إن السيدة تشتهى البرتقال ، وان عليه أن يسرع إلى القرية عدوا ليحضر بعضا منه ، على أن ندفع ثمنه فى اليوم التالى . وما أن غادر البيت حتى صعدت إلى الطابق العلوى.

« كانت مسز لينتون تجلس فى نجوة النافذة كالمعتاد ، وترتدى ثوبا فضفاضا أبيض اللون ، وتغطى كتفيها بشيلة خفيفة . وكان شعرها الغزير الطويل قد عقص مرفوعا فوق رأسها فى بداية مرضها ، اما الآن فكان ممشطا فى بساطة ، وتنسدل خصلاته فى تموجه الطبيعى فوق صدغيها وعنقها . وكان مظهرها قد تبدل تماما ــ كما انبأت هيثكليف ــ ولكنها عندما تكون هادئة فان هذا التبدل تبدو فيه مسحة من جمال ملائكى لا عهد لدنيا البشر بمثله !.. وكان البريق المتألق فى عينيها قد خبا ، وبدت مكانه عذوبة حالمة حزينة . ولكن هاتين العينين لا توحيان بأنهما تنظران إلى الأشياء المحيطة بها ، وإنما تبدوان دائما وكأنهما تتطلعان إلى ما وراءها ، تتطلعان إلى بعيد وراء كل شيء ، حتى ليحق لك أن تقول انهما تتطلعان إلى ما وراء هذا العالم كله !.. اما شحوب وجهها ــ الذى اختفى هزاله ومنظره الهشيم منذ أن اكتسى بشيء من اللحم ــ والتعبير الغريب المرتسم فى محياها من اثر حالتها العقلية ــ فانهما وإن كانا ينمان ، على نحو اليم ، عن الأسباب التى ادت إليهما ، فقد كانا يزيدان من الشعور بالأسى الذى يثيره مرآها فى النفوس . اما انا فكنت اجد فيهما ــ واحسب أن اى شخص ينظر إليها كان يجد ذلك مثلى ــ ما ينقض اية ادلة ظاهرية اخرى على نقاهتها وقرب شفائها ، وإنما يسمها بطابع الشخص الذى قضى عليه بالفناء !

« وكان على النافذة بجوارها كتاب مفتوح تحرك النسمات الهادئة اوراقه بين آن وآخر . وفى يقينى أن لينتون هو الذى وضعه هناك ، إذ أنها لم تكن تحاول قط أن تسلى نفسها بالقراءة ، أو تشغل نفسها باى عمل آخر . وكم من ساعة كان يقضيها محاولا أن يثير انتباهها إلى شيء مما كان موضع تسليتها فى الماضى . وكانت تعى ما يرمى إليه ، فاذا كانت فى حالة طيبة ، فانها تحتمل محاولاته فى هدوء واستكانة ، مكتفية باظهار عدم جدواها بما ينبعث منها بين وقت وآخر من تنهد الضجر والسأم ، حتى تنتهى اخيرا إلى إيقاف مساعيه بابتسامة حزينة ، أو قبلة خاطفة . اما فى الحالات الأخرى ، فانها تتحول عنه فى نفور وعناد ، وتخفى وجهها بين راحتيها ، أو تدفعه عنها فى حنق وغضب .. فكان عندئذ يحرص على أن يتركها وحدها ، مدركا عن يقين أنه قد اخطأه الصواب فى مسعاه .

« وكانت اجراس كنيسة (جيمرتون) لا تزال تدق من بعيد ، كما كان الخرير الهادىء لقنوات الوادى يصافح الأذن وديعا رقيقا ، فكان بديلا جميلا لذلك الحفيف الذى لم يحن موعده بعد ، حفيف أوراق الشجر فى الصيف ، والذى كان يطغى على موسيقى القنوات عند ما تورق الأشجار حول (الجرانج) .. وكان خرير الماء يسمع دائما فى (مرتفعات ويذرنج) كلما سكن الهواء إثر انهمار المطر طويلا ، أو جريان الثلوج الذائبة فوق التلال . وكانت كاثرين تفكر فى (مرتفعات ويذرنج) ، وهى تصغى إلى ذلك الخرير الموسيقى ــ إن كانت تفكر فى شيء أو تصغى إلى شيء على الاطلاق ! ــ ولكن كانت فى عينيها

تلك النظرة الجوفاء الغامضة التى وصفتها من قبل ، والتى لم تكن تعبر عن إدراك لشىء من الأشياء المادية سواء عن طريق السمع أم البصر ..

« ووضعت الخطاب ف رفق ف يدها المستقرة على ركبتها ، وقلت :

ــ هذا خطاب لك يا مسز لينتون .. وينبغى أن تقرئيه على الفور ، لأنه يتطلب ردا .. هل أفض أختامه ؟

« فلم تغير اتجاه نظراتها ، وقالت ف اقتضاب : « نعم .. ».

« وفتحت الخطاب ، وكان موجز العبارة ، ثم استطردت قائلة : « اقرئيه الآن ! » .

« غير أنها جذبت يدها بعيدا ، فسقط الخطاب على الأرض .. فالتقطته ثانية ووضعته ف حجرها ، ووقفت أنتظر حتى يروق لها أن تنظر إليه ، لكن ترقبى لهذه الحركة طال على غير جدوى ، حتى اضطررت إلى متابعة كلامى قائلة : « هل تريدين أن أقرأه عليك يا سيدتى ؟.. إنه من مستر هيثكليف ! » .

« فأجفلت ، ولاحت ف عينيها بارقة من عودة الذاكرة ، وتراءت ف محياها دلائل النضال ف سبيل تنظيم أفكارها . ثم رفعت الخطاب ، وبدا عليها أنها تتصفحه ف إمعان ، حتى إذا ما بلغت الإمضاء ، تأوهت ف مرارة . ومع ذلك فقد وجدت أنها لم تدرك دلالته تماما ، لأننى عندما رغبت إليها ف أن تسمعنى جوابها ، اكتفت بأن أشارت إلى الاسم ، وراحت تتفرس ف وجهى ف لهفة حزينة متسائلة .. فحدست حاجتها

إلى من يشرح لها الأمر ، وقلت : « حسنا .. إنه يود أن يراك .. وهو الآن ف الحديقة ، يتلهف على معرفة الإجابة التى أحملها إليه .. » .

« وكنت قد لاحظت أثناء كلامى أن كلبا ضخما ــ كان يقبع تحتنا ف الحديقة مستلقيا ف استرخاء ف أشعة الشمس الساطعة فوق العشب الأخضر ــ قد نصب أذنيه فجأة ، وبدا يهم بالنباح ، ولكنه ما لبث أن أرخاهما وهو يعلن ، بهزات ذيله ، عن مقدم شخص لا يعده غريبا عن المكان .. ومالت مسز لينتون إلى الأمام ، وهى ترهف السمع ، وقد حبست أنفاسها . وفي اللحظة التالية سمعت وقع أقدام تعبر الردهة . كان المنزل المفتوح من قوة الاغراء لهيثكليف بدخوله ، بحيث لم يستطع مقاومته .. وأغلب الظن أنه حسبنى قد نكثت بعهدى له ، فصمم على الاعتماد على جراته ! .. وكانت كاثرين متعلقة الأنظار بباب حجرتها ، ف لهفة واشتياق شديدين . غير أن القادم لم يصب الحجرة الصحيحة ف بادىء الأمر ، فأشارت إلى أن أستقبله ، ولكنه اهتدى إليها قبل أن أبلغ الباب . وف خطوات وثابة ، كان يقف إلى جانبها ، ويضمها إلى صدره ف قوة !

« ولقد لبث أكثر من خمس دقائق لا ينطق بكلمة ، ولا يرخى ذراعيه عن احتضانها ، وقد راح ف خلالها يمطرها بعدد من القبلات أحسب أنه لم يمنح أحدا أكثر منه ف حياته قط من قبل !.. ولكنى أشهد أن سيدتى هى التى قبلته أولا . ورأيت ف جلاء أنه لم يستطع احتمال النظر إليها ، لفرط ألمه

الصارخ . كان قد ادرك ــ كما ادركت انا ــ منذ ان وقعت انظاره عليها ، انه لم يكن ثمة امل فى شفائها ، وانه قد قضى عليها بالموت ، لا شك فى ذلك ولا ريب !

« وكان أول ما نطق به ، هو ان راح يهتف فى لوعة دون ان يحاول إخفاء يأسه وأساه : « أواه ياكاثى ! .. أواه يا حبيبتى! .. كيف استطيع احتمال ذلك ؟ » .. وكان عندئذ يحدق النظر إليها فى إمعان شديد ، بحيث ظننت أن تركيز نظراته سوف يجلب البكاء إلى عينيه .. ولكنهما كانتا تتقدان بالعذاب والألم ، وقد تحجرتا فلا تنديان بالدموع .. فاسندت كاثرين كتفيها إلى ظهر المقعد ، وراحت تبادله نظرته وقد قطبت حاجبيها . كان مزاجها اشبه بدوارة الريح ، لأهوائها الدائمة التقلب والتغير .. وماإلبثت ان قالت :

ــ وماذا الآن ؟ .. لقد حطمتما قلبى ، انت وادجار ، يا هيثكليف ! .. ثم تأتيان كلاكما تتباكيان وتنعيان على ما فعلتماه بى ، كأنكما انتما اللذان تستحقان الإشفاق والرثاء .. ولكنى لن اشفق عليك او ارثى لك ! لست انا التى تفعل ذلك . لقد قتلتنى ، واحسبك افلحت فى ذلك . يا لله ! ما اقواك ! .. ترى كم من السنين تنوى أن تعيشها بعد أن ارحل ؟

. « وكان هيثكليف يركع على إحدى ركبتيه بجوارها ليستطيع احتضانها ، فحاول النهوض ، ولكنها امسكت بشعره وتشبثت به لتبقيه فى مكانه ، ثم استطردت تقول فى مرارة : « شد ما اود ان اظل ممسكة بك حتى نموت معا ! .. ولن



وفى خطوات وثابة ، كان يقف الى جانبها ، ويضمها الى صدره فى قوة ! ..

ابالي بما تعانيه من الم .. بل لست ابالي شيئا بآلامك جميعا. ولماذا بربك لا تتعذب ولا تتألم ؟ .. لقد تعذبت انا وذقت الوان الالم .. ثم هل تراك تنساني ؟ .. هل ستكون سعيدا عندما اكون تحت اطباق الثرى ؟ هل تراك تقول بعد عشرين عاما : « هذا قبر كاثرين ايرنشو . لقد احببتها منذ عهد بعيد ، وشقيت بفقدها ، ولكن ذلك قد مضى وانقضى .. فقد احببت الكثيرات منذ ذلك الحين ، واطفالي الآن احب إلى نفسي مما كانت هي في يوم من الأيام . وعندما تحين ساعتي ، فلن يسرني اني ذاهب إليها ، بل سوف يسوؤني ان اضطر إلى تركهم ! » .. هل هذا ما ستقوله يا هيثكليف ؟ » .

« فانتزع رأسه من قبضتها في عنف ، وكانت اسنانه تصطك وهو يصيح : « بربك لا تعذبيني حتى يصيبني الجنون كما اصابك ! » .

« كان الاثنان ، في نظر المشاهد العادي ، يمثلان صورة غريبة مخيفة .. وكان يخلق بكاثرين ان تقدر ان السماء سوف تكون منفى رهيبا لها ، ما لم تطرح عنها ـ مع جسدها الفاني ـ نفسيتها المعنوية ايضا .. فقد كانت اساريرها الآن تحمل طابعا من الحقد والضغينة في وجنتيها الشاحبتين ، وشفتيها الباهتتين ، وعينيها اللتين تتقدان بشرر الانتقام ! .. وكانت تطبق اصابعها على خصلة من غدائره التي كانت تمسك بها . اما رفيقها فقد اتكا ، عند نهوضه ، على إحدى يديه ، وامسك بذراعها الأخرى ، فلما رفع يده عنها ادركت ان حصيلته من الرقة التي تستلزمها حالتها كانت من القلة بحيث كان على

بشرتها الشاحبة اربعة خطوط زرقاء عميقة ! .. واستطرد يقول في وحشية :

ـ هل تملكك شيطان حتى تخاطبيني على هذا النحو وانت مشرفة على الموت ؟ .. وهل تدرت ان كلماتك جميعا سوف تظل مطبوعة في ذاكرتي ، ولا تفتأ تحفر فيها وتزداد عمقا بعد ان تكوني قد تركتني ؟ .. إنك لتعلمين مدى كذبك عندما تقولين إنني قتلتك . وإنك لتعلمين ، ياكاثرين ، انني استطيع ان انساك إذا ما استطعت ان انسى كياني ووجودي .. افلا يكفي انانيتك الجهنمية انك بينما تنعمين بالراحة والسكينة ، سوف اتلوى انا في عذاب الجحيم ؟

« فاجابت كاثرين في انين اليم : « ولكني لن انعم بالراحة او السكينة » .. وعادت إلى الشعور بضعفها البدني عندما اخذ قلبها يخفق في عنف ، وفي ضربات غير منتظمة كانت ترى وتسمع من بعد ، من جراء الانفعال الشديد الذي استبد بها .. فكفت عن الكلام ريثما انقضت تلك الأزمة ، ثم استطردت تقول في رقة :

ـ إنني لا اتمنى لك عذابا اشد مما اقاسيه يا هيثكليف . كل ما اتمناه هو الا نفترق قط . ولو ضايقتك واكربتك كلمة من كلماتي فيما بعد ، فاعلم انني احس هذا الكرب نفسه في قبري .. فاصفح عني ، من اجل خاطري ! .. تعال هنا واركع بجانبي ثانية . إنك لم تسيء إلى في حياتك قط . وإذا امعنت في غضبك علي ، فإن ذلك سوف يكون اسوأ ذكرى لك، بما يفوق ذكرى كلماتي العنيفة . هلا اتيت إلى جانبي ؟ .. تعال .. تعال !

« فعـاد هيثكليف ثانية ، ولكنـه وقف خلف مقعـدها ، وانحنى فوق ظهر المقعد قليلا ، إلى الحـد الذى لا يمكنهـا معـه أن ترى وجهـه الممتقع من التـأثر والانفعـال .. وأدارت رأسـها إلى الوراء لتنظر إليه ، ولكنه لم يكن ليسمح لها بذلك .. فقد تحول بغتة ، وسـار نحو المدفأة ، حيث وقف صامتا وقد أدار ظهره نحونا .. وتبعته نظرات مسز لينتون فى ترقب وارتياب .. وكانت كل لحظـة تمـر توقظ فيهـا أحاسيس جديدة .. فلما طال الصمت ، واستطالت نظراتها ، استطردت تخاطبنى فى نبرات مليئة بمرارة الخيبة :

ـ آه ! .. أرأيت يا نللى كيف أنه لا يريد أن يرق لى لحظة ليحول بينى وبين القبر ! .. هـذا هو مبلغ حبـه لى ! .. حسنا .. لا بأس .. إن هذا ليس هيثكليف الذى أعـرفه ! .. ولكنى سوف أظل أحب هيثكليف الذى أعـرفه ، وسوف آخذه معى فإنه قطعة من روحى !

» ثم أضافت كأنما تفكر بصوت مسموع :

ـ ثم إن أشد ما يضايقنى الآن هو هذا السجن المحطم ـ جسدى ـ الذى أعيش فيه . لقد تعبت من طول احتباسى هنا .. وأود بصبر نافد أن أمر إلى ذلك العالم المجيد ، وأن أظل هناك أبدا ، فلا أقتصر على النظر إليه من وراء غلالة من الدموع ، والحنين إليه من خلال جدران قلب مضنى ، وإنمـا أبقى فيه وأعيش معه حقا ! .. ولعلك يا نللى تخـالين أنك أفضل منى وأسعد حظا ، لأنك فى عنفوان قوتك وكامل صحتك! ولعلك تأسفين من أجلى وترثين لحالى ! .. ولكن كل شىء

سوف يتبدل عما قريب .. وسـوف أكون أنا التى أرثى لحالك .. سوف أكون بعيدة عنكم أشرف عليكم جميعا من عل ..

واستطردت تحدث نفسها :

ـ كم أعجب من تباعده ، وإحجامه عن الاقتراب منى ! .. أنا التى حسـبته يرغب فى ذلك ويتمنـاه ! .. هيثكليف ، يا عزيزى .. ما ينبغى لك أن تكون غاضبا عبوسـا الآن .. تعال إلى يا هيثكليف !

وفى غمرة لهفتها وشوقها نهضت واقفة ، وهى تستند إلى ذراع مقعدها .. وإزاء هذه الدعوة الحارة ، استدار نحوها وقد لاحت فى أساريره أمارات اليأس المرير . وكانت عينـاه الواسـعتان تنديان بالدموع ، وتحدجانها بنظرات وحشية ، وصدره يعلو ويهبط فى رجفات متتابعة .. ولبثا لحظة وقـد جمـد كل منهما فى مكانه .. ولم أر كيف التقيا بعـد ذلك ، ولكن كاثرين وثبت إلى الأمام ، فتلقاها بين ذراعيه ، والتقيـا فى عناق طويل ظننت أن سيدتى لن تخلص منـه على قيـد الحياة قط .. والواقع أنها بدت فى عينى كأنما فقدت الشعور .. والقى هو بنفسه على أقرب مقعد إليه ، وهو يحملها بين يديه ، فلما اقتربت فى عجلة لأتبين إن كانت مغشيا عليهـا ، كشر عن أنيـابه فى وجهى ، وانبثق الزبـد من فمه كالكلب المسعور ، وراح يضمها إلى صدره فى غيرة بشعة .. ولم أعد أشعر بأننى فى رفقة مخلوق من البشر مثلى ؛ وكان من الواضح أنه لن يفهمنى مهما خاطبته وقلت له .. وهكذا انتحيت جانبا وأمسكت لسانى ولذت بالصمت فى حيرة شديدة ..

وما لبثت ان سكن جاشي قليلا عندما رايت كاثرين تبدر منها حركة صغيرة .. لقد رفعت يدها لتجذب إليها عنقه ، وتلصق خدها بخده وهو يحتضنها .. بينما راح بدوره يمطرها بقبلات جنونية ، وهو يقول في ضراوة :

ــ لقد علمتني الآن كيف كنت قاسية ياكاثي .. قاسية ومنافقة ! .. فلماذا احتقرتني ؟ لماذا خدعت قلبك وغدرت به ؟ .. إنك لن تسمعي مني كلمة واحدة تسرى عنك ، فإنك تستحقين ذلك .. انت التي قتلت نفسك .. اجل .. لك ان تقبليني ، وان تذرفي ما شئت من الدموع .. ولك أن تنتزعي مني القبلات والعبرات .. فإنها سوف تلفحك بنارها .. وسوف تلعنك بكل قطرة فيها ! .. لقد كنت تحبينني .. فبأي حق ، إذن ، هجرتني ؟ .. بأي حق تخليت عني من اجل وهم تافه شعرت به نحو لينتون ؟ .. فلا الشقاء او الهوان او الموت ، ولا اي شيء مما يمكن ان يصيبنا به الله او الشيطان ، كانت لتستطيع ان تفرق بيننا .. ولكنك فعلت ما تعجز عنه كل هذه القوى ، وفعلته بملء إرادتك .. إنني لم احطم قلبك . انت التي حطمته بيدك .. وعندما حطمته ، حطمت قلبي معه ! .. إنك تريننى قويا متين الأسر ، ولكن ذلك لتعس حظي .. فهل تظنينني اتمنى الحياة طويلا ؟ .. واي نوع من العيش ذلك الذي يمكن ان احياه ، بينما انت .. آه ! يا إلهي ! .. أتراك انت تتمنين العيش بينما روحك في قبر من القبور ؟

تشرقت كاثرين بدموعها ، وبأنينها ، وقالت :

ــ دعني وحدي .. دعني وحدي .. إذا كنت قد اخطأت ، فهأنذا اكفر عن خطئي بالموت . وهذا فوق ما يكفيك ! .. لقد هجرتني ، انت ايضا .. ولكني لن اعاتبك او اعنف عليك .. إنني اصفح عنك .. فاصفح عني !

ــ ما اصعب الصفح وانا انظر إلى هاتين العينين، واتحسس هاتين اليدين الناحلتين ! .. قبليني ثانية ، ولكن لا تدعيني ارى عينيك ! .. لقد غفرت لك كل ما فعلته بي .. فانني احب قاتلي ! .. ولكن قاتلك انت ! .. كيف يمكنني ان احبه ؟

وساد الصمت بينهما ، واختفى وجه كل منهما في وجه الآخر ، وغسلت دموع كل منهما وجه صاحبه .. واغلب الظن ان البكاء كان متبادلا بينهما .. فإن هيثكليف كان خليقا بأن يبكي في مناسبة عظيمة كهذه ..

وبدا القلق يتسرب إلى نفسي ، كلما مضى الوقت .. فقد كان النهار يمر سراعا ، كما عاد الرجل الذي كنت قد بعثت به إلى القرية ، من مهمته ، وبدات اميز من بعد ، في اشعة الشمس ناحية الغرب فوق الوادي ، جماعات من الناس تتكاثر وتتكاثف عند باب كنيسة (جيمرتون) ، فقلت :

ــ لقد انتهى القداس ، وسوف يكون سيدي هنا بعد نصف ساعة ..

فزمجر هيثكليف باللعنات والسباب ، وشدد من عناقه لكاثرين ، ولكنها لم تتحرك قط .. ولم تمض هنيهة ، حتى رايت جمعا من الخدم يجتازون الطريق نحو الجناح الذي يقع فيه المطبخ .. ولم يكن مستر لينتون يبعد عنهم كثيرا

وهو يسير خلفهم .. وفتح بنفسه البوابة الكبيرة ، وأخذ يسير فى بطء واسترخاء قاصدا نحو المنزل .. ولعله كان يستمتع بهواء العصر الجميل الذى كان يترقرق كنسمات الصيف ..

عندئذ هتفت قائلة :

ـ ها هو ذا قد حضر .. فاسرع بالانصراف بحق السماء .. إنك لن تجد أحدا على الدرج الأمامى .. فاسرع بالخروج ، واختف برهة بين الأشجار ريثما يدخل المنزل ، حتى لا يراك ..

فقال هيثكليف وهو يحاول الخلاص من بين ذراعى رفيقته :

ـ لا بد لى من الذهاب الآن يا كاثى .. ولكن إذا قدر لى أن أعيش فسوف أراك ثانية قبل أن يحين موعد نومك .. لن أذهب إلى أبعد من خمس ياردات عن نافذة حجرتك ..

فتشبثت به بقدر ما سمحت لها قواها الخائرة ، وهى تجيبه :

ـ كلا .. لا ينبغى أن تذهب .. ولن تذهب ..

فتوسل إليها فى قلق :

ـ ساعة واحدة فقط !

ـ ولا دقيقة واحدة !

فازداد الدخيل القلق إلحاحا ، وقال :

ـ بل لا بد لى من الذهاب .. سوف يأتى لينتون إلى هنا حالا ..

ولقد كان بوسعه أن ينهض ، وبذلك يتخلص من قبضة أصابعها ، ولكنها ازدادت به تعلقا وازدادت أصابعها به تشبثا، وقد لاح فى أساريرها عزم رهيب جنونى ، ثم صرخت قائلة :

ـ كلا .. لا تذهب .. لا تذهب ! .. إنها المرة الأخيرة .. ولن يقتلنا إدجار .. هيثكليف .. إننى سوف أموت .. سوف أموت ..

فصاح هيثكليف ، وهو يغوص فى مقعده :

ـ يا لك من حمقاء ! .. ها هوذا .. صه يا حبيبتى ، اسكتى ياكثرين ! .. سوف أبقى .. وإذا أطلق على الرصاص وأنا جالس فى مكانى ، للفظت أنفاسى الأخيرة ، وشفتاى تباركانه !

وعادا إلى عناقهما من جديد .. وسمعت وقع خطوات سيدى فوق الدرج ، فتصبب العرق البارد من جبينى ، واستبد بى الفزع ، وقلت لهيثكليف صارخة :

ـ هل تنوى أن تصغى إلى هذيانها ؟ .. إنها لا تعرف ما تقول .. قبل تدمرها وتقضى عليها ، لأنها لم يعد لديها من العقل ما تحمى به نفسها ؟ .. انهض .. فما زالت فى الوقت فسحة لخلاصك .. إن هذا شر عمل شيطانى ارتكبته فى حياتك قط .. لقد قضى علينا جميعا .. السيد ، والسيدة ، والخادمة !

وكنت أعصر يدى ، وانشج بالبكاء .. وسمع مستر لينتون تلك الضجة ، فاسرع الخطى .. وفى غمرة اضطرابى وانفعالى، سررت إذ رأيت ذراعى كاثرين تتهاويان مسترخيتين بجانبها ، ورأسها يميل إلى الأمام .. فقلت لنفسى :

ـ لقد أغمى عليها ، أو ماتت ! .. وذلك أفضل كثيرا .. ولكن الأفضل منه أن تكون قد ماتت ، حتى لا تبقى طويلا عبئا على من يحيطون بها ، مجلبة للشقاء إليهم !

وانتفض ادجار على ضيفه المتطفل ، وقد امتقع وجهه دهشة وغضبا .. ولست أدرى ما الذى كان يغرى أن يفعله .. فقد وضع الآخر حدا لكل ما كان يمكن حدوثه ، بأن وضع بين يديه ذلك الجسد الساجى الذى يبدو خلوا من الحياة ، قائلا :

ــ انظر إليها .. وإذا لم تكن شيطانا او عدوا لدودا ، فأسعفها اولا ، ثم قل لى بعد ذلك كل ما تشاء ..

واسرع يغادر المكان ، ويجلس فى حجرة الجلوس .. ودعانى مستر لينتون ، فرحنا نبذل الجهود المضنية ، ونلجأ إلى شتى الوسائل ، لنعيدها إلى الصواب ، حتى نجحنا فى إفاقتها اخيرا .. ولكنها كانت ذاهلة اللب .. كانت تئن وتتأوه ، ولكنها لم تعرف احدا .. ونسى ادجار ، فى غمرة قلقه عليها ، صديقها البغيض .. اما انا فلم انس .. فانتهزت أول فرصة سنحت لى ، ومضيت إليه فرجوته ان ينصرف ، مؤكدة له أن كاثرين احسن حالا ، وأنه سوف يسمع منى فى الصباح كيف تمضت ليلتها .. فقال :

ــ إننى لن امتنع عن مغادرة الدار .. ولكنى سوف أبقى فى الحديقة .. وأرجوك يا نللى أن تبرى بوعدك غدا .. وسوف تجديننى تحت اشجار الحور .. فإذا لم تفعلى فسوف اقوم بزيارة أخرى سواء أكان لينتون هنا أم لم يكن !

والقى نظرة سريعة نحو باب الحجرة المنفرج ، وإذ استوثق من أن ما ذكرته له كان يبدو صحيحا ، غادر المنزل فى خطوات سريعة ، وأخلاه من محضره المنكود ..

الفصل السادس عشر

حوالى منتصف تلك الليلة ولدت كاثرين التى رأيتها فى (مرتفعات ويذرنج) .. ولدت هزيلة ضامرة فى الشهر السابع من حملها .. وبعد مولدها بساعتين ، لفظت الأم انفاسها الأخيرة ! .. ماتت دون أن تسترد من الوعى ما يكفى لأن تفتقد هيثكليف ، أو تشعر بوجود ادجار .. وكان حزن هذا الأخير لما أصابه من الثكل ، أمرا يجل عن الوصف ، وتألم النفس للحديث عنه .. كما أظهرت آثاره بعد ذلك مدى عمقه فى نفسه . وفى رأيى أن ما زاد من فداحة المصاب لديه ، أنه ترك بغير عقب من الذكور . وكان قلبى يعتصر حسرة وألما لذلك ، وأنا أتأمل اليتيمة الضعيفة ، فرحت أنحى باللائمة ــ فى نفسى ــ على لينتون العجوز الذى أوصى بأن تنتقل أملاكه ، إذا عرضت مثل هذه الحالة ، إلى ابنته بدلا من حفيدته .. وهكذا جاءت الطفلة المسكينة ، فلم تلق من أحد ترحيبا ، ولم يهش لمولدها إنسان .. فلو أنها ماتت فى تلك الساعات الأولى لها فى الوجود ، لما اكترث لذلك أحد قط . وقد عوضنا هذا الإهمال فيما بعد ، ولكن المنكودة استهلت وجودها بغير صديق ، مثلما يخشى أن تختتمه !

وتسلل ضوء الصباح ــ الذى كان مشرقا بهيجا خارج الدار ــ من ثنايا مصاريع نوافذ الحجرة الصامتة ، فأضفى على الفراش وشاغلته وهجا رقيقا لينا . وكان ادجار لينتون

يضع رأسه على الوسادة ، مطبق العينين ، ومحياه الناصع البياض يبدو ـ فى شحوب الموت الذى يعلوه ـ أشبه بالوجه الساجى إلى جواره ، وقد تماثلا سكونا وجمودا .. ولكن أساريره كانت تنطق فى جمودها بالألم المضنى ، على حين كان وجه الراحلة يفيض سلاما ودعة . كان جبينها ناعما وضاء ، وأجفانها مطبقة ، وشفتاها تنفرجان فى ابتسامة هادئة .. وما أحسب أن أيا من ملائكة السماء كان يمكن أن يبدو أوفر منها جمالا .. ونالنى قبس من ذلك السكون المطلق الذى يحيط بها فى رقادها ، فما أحسست قط بأن عقلى عاش فى إطار أشد قداسة مما كان عليه عندما رحت أتأمل تلك الصورة الصافية من الراحة الالهية ! .. ورحت أرجع فى نفسى ، عن غير قصد ، صدى الكلمات التى نطقت بها منذ ساعات قلائل ، قلت : « إنها بعيدة عنا تشرف علينا جميعا من عل .. وسواء أكانت لا تزال على الأرض ، أم أنها الآن فى السماء ، فإن روحها قد رجعت إلى مستقرها ومثواها عند خالقها » .

ولست أعرف إن كانت تلك صفة اختصصت بها ، ولكن الواقع أننى قلما أحس شيئا غير السعادة عندما أقوم وحدى بالحراسة فى حجرة يرفرف عليها الموت ، ما لم يقاسمنى هذا الواجب شخص خرج به الحزن عن صوابه أو ملىء قلبه يأسا .. فأنى أرى راحة وطمأنينة لا تستطيع الأرض ولا الجحيم أن تحطمهما ، وأحس باليقين فى عالم يأتى بعد ذلك ، لا نهاية له ولا ظلمات فيه .. تلك الأبدية التى يلجون أبوابها ، حيث لا تتقيد الحياة بحدود فى مدتها ومداها ، ولا الحب فى حنانه

وروعته ، ولا السرور فى عنفوانه ووفرته .. وقد تبينت فى تلك المناسبة مبلغ الأثرة والأنانية فى حب مثل حب مستر لينتون ، عندما يحزن على خلاص كاترين السعيد !! .. ومن المحقق أن المرء قد يشك أحيانا ، بعد تلك الحياة المليئة بالعناد والمشاكسة والتهور التى كانت تحياها ، فيما إذا كانت تستحق أن تقاد أخيرا إلى مرفأ السلام والطمأنينة .. إن المرء قد يشك فى ذلك فى سويعات التفكير الهادىء المجرد عن العاطفة ، لا فى ذلك الوقت ، أمام جثمانها .. فإن السكينة التى كانت ترين على ذلك الجثمان المسجى ، بدت كأنها تضمن سكينة مماثلة للروح التى كانت تسكنه !

« ترى هل تعتقد يا سيدى أن مثل هؤلاء الناس يلقون السعادة فى العالم الآخر ؟ .. إننى أبذل الكثير فى سبيل معرفة ذلك .. »

ولكنى تنكبت الإجابة على سؤال مسز دين ، الذى أدهشنى وتنذ كشىء أدنى إلى الضلالة .. فاستطردت تقول :

« إننا لو اقتفينا سبيل كاترين لينتون ، لما حق لنا أن نظنها سعيدة .. ولكننا سوف ندعها لخالقها .. كان السيد يبدو نائما ، فجازفت بمغادرة الحجرة بعد شروق الشمس مباشرة ، وتسللت إلى حيث الهواء النقى المنعش خارج الدار .. وحسبنى الخدم قد خرجت لأنفض عنى النعاس بعد حراستى الطويلة ، ولكنى فى الحقيقة إنما خرجت لأرى مستر هيثكليف .. فلو أنه مكث بين أشجار الحور الليل بطوله ، لما سمع شيئا من الجلبة التى قامت فى (الجرانج) .. اللهم إلا إذا كان قد

سمع وقع حوافر جواد الرسول الذى بعثنا به إلى « جيمرتون » .. ولو أنه اقترب من الدار ، لادرك من الأضواء المتنقلة هنا وهناك ، والأبواب الخارجية وهى تفتح وتغلق ، أن الأمر لم يكن على ما يرام فى الداخل . وكنت أود أن أجده ، ومع ذلك كنت أخشى هذا اللقاء .. كنت أحس بشناعة الأنباء التى يجب أن أنقلها إليه ، وتمنيت أن ينتهى ذلك الموقف سريعا ، ولكنى لم أكن أعرف كيف أقولها له ! .. ووجدته هناك ، على قيد خطوات من البستان ، مستندا إلى شجرة عتيقة ، عارى الرأس ، ملبد الشعر بالندى الذى تجمع على الغصون المورقة حديثا ، والذى كانت قطراته تتساقط حوله .. وكان قد قضى فترة طويلة فى وقفته هذه ، لأننى رأيت طائرين يذهبان ويعودان ، وليس بينهما وبينه إلا زهاء ثلاثة أقدام ، وقد انهمكا فى بناء عشهما ، ولا يريان فى قربه منهما إلا ما يريان فى كتلة من الخشب ، على حين انثلثا هاربين عند اقترابى ..

ورفع عينيه نحوى ، وقال :

ــ لقد ماتت !.. ولم أكن بحاجة إلى انتظارك لأعرف ذلك .. ضعى منديلك هذا جانبا ، ولا تدعى دموعك ومخاطك يسيلان أمامى !.. لعنة الله عليكم جميعا .. إنها ليست فى حاجة إلى شىء من دموعكم !

كنت أبكى رثاء لحاله بمثل ما كنت أبكى عليها .. فإننا أحيانا نشفق على مخلوقات تجردت من مثل هذا الشعور سواء بالنسبة للناس أو لأنفسها .. وعندما وقعت أنظارى على وجهه للمرة الأولى أدركت أنه علم بالكارثة .. وطرأت لى فكرة



ووجدته هناك ، على قيد خطوات من البستان ، مستندا إلى شجرة عتيقة عارى الرأس ، ملبد الشعر بالندى ..

سخيفة ، هى أن قلبه قد غشيته السكينة فراح يصلى ، إذ كانت شفتاه تتحركان فى تمتمة صامتة ، وقد أحنى رأسه كأنما ركعت أنظاره على الأرض .. فقلت وقد كتمت شهقاتى وجففت عبراتى :

ـ أجل .. لقد ماتت .. وأرجو أن تكون قد ذهبت إلى السماء ، حيث يمكن أن نلحق بها ، كل واحد منا ، لو أصغينا إلى صوت النذير ، وتركنا سبل الشر لنسلك سبل الخير ..

فسألنى هيثكليف فيما يشبه السخرية :

ـ وهل أصغت هى إذن إلى صوت النذير ؟ .. هل ماتت أشبه بقديسة ؟.. هيا .. قصى على كل ما حدث ، فى صدق ودقة .. كيف لقيت ..

كان يهم بأن ينطق باسمها ، ولكنه لم يستطع التلفظ به ، وكان وهو يضغط على شفتيه كأنما يصارع ، فى صمت ، حزنه المكنون ، متحديا ـ فى الوقت نفسه ـ إشفاقى عليه ورثائى له بنظرات نارية ضارية ، وعينين لا تطرفان .. وأخيرا اضطر ، برغم صلابته ، إلى البحث عن متكأ خلفه ، إذ انتهى ذلك الصراع بهزيمته وأخذت الرعدة تسرى فى بدنه حتى أخمص قدميه ، على الرغم منه .. ثم تابع القول :

ـ كيف لقيت نهايتها ؟

فقلت فى نفسى : « أيها التعس المسكين ! .. إن لك قلبا وأعصابا مثل ما لإخوانك من بنى البشر .. فلماذا تتلهف على إخفائها ؟ .. إن كبرياءك لن تخفى على الله ! .. وأنت إنما

تدفعها إلى أن تظل تهصر قلبك وأعصابك ، حتى تنتزع منك عبرات الهوان والمذلة ! » .

ثم أجبته بصوت عال :

ـ فى هدوء الحمل الوديع .. تنهدت ثم بسطت جسمها ، أشبه بطفل يصحو من نومه ، ثم يعود إلى الاستغراق فيه ثانية .. وبعد خمس دقائق أحسست بقلبها يخفق خفقة واحدة ، ثم يسكن إلى الأبد !

فسألنى مترددا ، كأنما يخشى أن تتضمن إجابتى أشياء لا يطيق سماعها :

ـ هل .. هل لم تذكر اسمى قط ؟

ـ إنها لم تستعد حواسها ، ولم تعرف أحدا ، منذ أن فارقتها .. وهى ترقد الآن وعلى وجهها ابتسامة حلوة ، كأنما كانت خواطرها الأخيرة تسرح فى أيامها البهيجة الأولى .. لقد ختمت حياتها فى حلم رقيق ، وأدعو الله أن تقوم من الموت بمثل هذه الدعة فى العالم الآخر ..

فصاح فى انفعال مروع ، وهو يضرب الأرض بقدمه ، ويزمجر فى نوبة مفاجئة من العاطفة الجامحة :

ـ بل فلتقم فى عذاب الجحيم ! .. لماذا ؟ .. لقد كانت كاذبة حتى النهاية .. أين هى ؟ .. إنها ليست هناك فى المنزل .. وليست فى السماء .. ولم يشملها الفناء .. فأين هى ؟ أواه يا كاثرين ، لقد قلت إنك لا تبالين بآلامى جميعا . وأنا أدعو

الله دعاء واحدا ـــ سأظل أردده حتى يجف لسانى ـــ فلا عهدت الراحة والسلام ، يا كترين ايرنشو ، ما دمت حيا .. وقد قلت إننى قتلتك .. فلتلازمنى روحك إذن لتقض مضجعى ! .. ان روح المقتول لا تنفك تحوم حول قاتله ، كما أعتقد .. والأشباح قد رؤيت تجوب الأرض ، فيما أعلم .. فكونى معى دائما ، على أية صورة تتراءين فيها .. وادفعى بى إلى الجنون ! .. ولكن لا تتركينى فى هذه الهاوية ، حيث لا أستطيع ان اجدك معى .. آه ! .. يا الهى ! .. هذا شىء يقصر عنه النطق ! .. إننى لا أستطيع العيش بغير حياتى .. ولا أستطيع الحياة بغير روحى ..

ثم اخذ يضرب رأسه بجذع الشجرة الخشن ، ثم يرفع عينيه ويطلق عواء لا يشبه أصوات البشر فى شىء ، إنما هو اشبه بعواء وحش كاسر يمشى إليه الموت تحت طعنات المدى والحراب .. ولاحظت رشاشا من الدماء على لحاء الشجرة ، كذلك كان جبينه ويداه ملوثة بالدم .. والأرجح ان المنظر الذى شهدته لم يكن إلا تكرارا لما كان يجرى خلال الليل .. ولكنه لم يثر فى نفسى رحمة او شفقة ، وإنما كان يخيفنى ويروعنى .. وبرغم ذلك فقد انفت ان اتركه على هذه الحال .. ولكنه فى اللحظة التى استرد فيها من الوعى ما يكفى لأن يدرك اننى اراقبه ، صاح بى فى صوت كقصف الرعد ، يأمرنى بالانصراف .. ولقد أطعته على الفور ، إذ كان مما تعجز عنه قدرتى ان اهدىء روعه او اسرى عنه ..

وحدد موعد جنازة مسز لينتون فى يوم الجمعة التالى لوفاتها

.. وظل نعشها ، حتى ذلك الموعد ، مكشوفا وقد نثرت فوقه الزهور وأوراق الأشجار العطرية ، فى حجرة الاستقبال الكبرى .. وكان لينتون يقضى الأيام والليالى بجواره ، حارسا لا يغفل ولا ينام .. اما الشىء الذى خفى عن الجميع ، ما عداى ، فهو ان هيثكليف كان يقضى الليالى ، على الأقل ، فى الحديقة وقد حرم من الراحة كالحجار .. ولم اكن على اى اتصال به ، ومع ذلك كنت ادرك رغبته وعزمه على الدخول ، إذا تهيأت له الفرصة المواتية .. فما ان حل مساء الثلاثاء ، واسدل الظلام ستوره ، واضطر سيدى لفرط تعبه ان يأوى إلى فراشه نحو ساعتين ، حتى مضيت ففتحت إحدى النوافذ ، وقد تأثرت من مثابرته على البقاء فى الحديقة ، لأهيىء له فرصة يلقى فيها على وجه معبودته الشاحب نظرة وداع أخيرة .. ولم يغفل انتهاز هذه الفرصة ، فى حذر ولفترة قصيرة .. بل لقد كان من الحذر فى دخوله ، دون اى صوت او جلبة ، بحيث ما كنت لأكتشف حضوره ، لولا ان وجدت الغطاء قد اختل نظامه حول وجه الجثة ، وان لاحظت على الأرض بجوار الفراش خصلة من الشعر الذهبى قد حزمت بخيط من الفضة ، ما كدت افحصها حتى ادركت انه اخذها من نوط كان معلقا حول رقبة كاترين .. كان هيثكليف قد فتح القلادة والقى بمحتوياتها على الأرض ، ووضع بدلها خصلة من شعره الأسود .. ولكنى حزمت الاثنتين معا ووضعتهما فى القلادة سويا !

وقد دعى مستر هندلى ايرنشو لتشييع جثمان شقيقته إلى مقرها الأخير ، ولكنه لم يحضر ولم يرسل اعتذارا ! .

وهكذا كانت الجنازة قاصرة ، فيما عدا زوجها ، على المستأجرين والخدم فحسب .. اما ايزابيلا فلم يدعها أحد ..

ولقد دهش القرويون إذ رأوا أن كاثرين لم تدفن فى صحن الكنيسة تحت النصب المنقوش الخاص بآل لينتون ، ولا فى مقابر أهلها خارجه .. وإنما دفن جثمانها فى قبر منفرد ، على سفح تل منحدر يغطيه العشب الأخضر ، فى ركن قصى من فناء الكنيسة ، بجوار السور الذى كان منخفضا فى ذلك الموضع بحيث زحفت على القبر الأعشاب المتسلقة ونبات التوت البرى الممتدة من منطقة الأحراش والبرارى، حتى كادت تغطيه تماما ..

وفى البقعة نفسها يرقد زوجها الآن ، وعلى قبر كل منهما شاهد بسيط ، وقد أقيمت عند أقدامهما كتلة صماء من الحجر الأسمر لتميز موضع القبرين .

* * *

الفصل السابع عشر

كان يوم الجمعة المشئوم ـ يوم وسدنا كاثرين الثرى ـ آخر عهدنا بالطقس الجميل ، طيلة شهر كامل .. ففى مساء ذلك اليوم انقلب الجو بغتة ، وهبت الرياح من الجنوب نحو الشمال الشرقى ، فأخذت ترخى حملها من المطر الغزير بادىء ذى بدء ، ثم قطع البرد الصلبة ، وأخيرا رقائق الثلج الهشة الناصعة البياض .. حتى إذا أصبحنا فى الغداة ، كان من العسير ان يتصور إنسان اننا قضينا ثلاثة أسابيع فى جو شبيه بأيام الصيف .. فقد اختفت الأقاحى والزهور البرية تحت ركام الثلوج المتدفقة ، وسكتت القنابر عن شدوها الصداح ، وذبلت أوراق الشجر الوليدة واسود لونها .. وهكذا طلع علينا ذلك الصباح باردا ، موحشا ، كئيبا ..

كان سيدى معتكفا فى حجرته ، أما أنا فقد احتللت حجرة الجلوس الوحيدة ، وحولتها إلى دار للحضانة ! .. وكنت جالسة فيها ، وفوق ركبتى تلك الطفلة الشبيهة بدمية صغيرة لا تكف عن الأنين ، وقد أخذت أهدهدها وأهزها يمنة ويسرة ، وأرقب بين الفينة والفينة رقائق الثلج التى كانت لما تزل تنهمر فوق افريز النافذة المجردة من الستائر ، وترتفع فوقه طبقة بعد طبقة ، عندما فتح الباب ، ودخل شخص مبهور الأنفاس ، يضحك بصوت عال ! .. وقد طغى سخطى وغضبى على دهشتى لحظة قصيرة ، إذ حسبت القادم واحدة من الخدم ، وصحت بها منتهرة :

ـ حسبك وكفى ! .. كيف تجرؤين على إظهار طيشك ومجونك هنا ؟ .. ماذا يقول مستر لينتون إذا سمعك ؟..

فاجابني صوت مالوف :

ـ ارجو المعذرة ! .. ولكني اعلم ان ادجار في فراشه الآن ، كما غلبني الضحك ولم استطع إيقافه ..

وإذ نطقت المتحدثة بهذه العبارة ، تقدمت نحو المدفأة ، وهي تلهث بأنفاسها وقد وضعت يدها على جنبها .. وما لبثت ان استطردت بعد صمت قصير :

ـ لقد ظللت اجرى طول الطريق من « مرتفعات ويذرنج » إلى حيث كانت السيول تدفعني وتغمرني .. فليس في وسعي ان احصى عدد المرات التي وقعت فيها .. أواه ! .. ان كل ما في بدني يخزني ويؤلمني .. ولكن لاتنزعجي ! .. سوف اشرح لك كل شيء بمجرد ان اجد في نفسي القدرة على الكلام .. وكل ما ارجوه الآن هو ان تأمري بإعداد العربة لتقلني إلى جيمرتون ، وان تطلبي من إحدى الخدم إحضار بعض الثياب لي من خزانة ملابسي ..

كانت القادمة ، كما احسبك قد ادركت، هي مسز هيثكليف (ايزابيلا) .. ومن المحقق انها لم تكن تبدو في حالة تبرر الضحك .. كان شعرها متهدلا على كتفيها تتخلله ندف الثلج ، ويقطر منه الماء .. وكانت ترتدي ثوبا من ثياب الفتيات التي اعتادت لبسها ، يلائم سنها اكثر مما يليق

بمركزها .. ثوبا طويلا ذا اكمام قصيرة .. كما لم تكن تغطي رأسها او تضع وشاحا حول عنقها .. وكان ثوبها حريريا رقيقا ألصقه البلل بجسمها ، على حين كانت قدماها لا يحميهما سوى نعل خفيف مفتوح .. وإلى جانب ذلك ، كان يمتد تحت اذنها جرح غائر لم يحل دون نزف الدم منه بغزارة سوى البرد القارس ، كما كان وجهها الناصع البياض مليئا بالكدمات والخدوش ، وجسدها الناحل لا يكاد يقوى على التماسك من الإعياء والهزال معا .. ولك ان تتصوري مبلغ فزعي الذي لم يخفف من حدته الوقت الذي انقضى منذ ان وقعت انظاري عليها حتى استطعت ان افحصها في إمعان ، نصحت بها قائلة :

ـ ايتها السيدة العزيزة ، إنني لن اتحرك من مكاني ، ولن اسمع منك كلمة واحدة اخرى ، حتى تنزعي كل قطعة من ثيابك ، وتستبدلي بها ثيابا جافة دافئة .. ولا ريب انك لن تذهبي الليلة إلى جيمرتون وانت في هذه الحالة ، فلا داعي إذن لإعداد المركبة ..

ـ بل سوف اذهب حتما ، سواء ركبت ام مشيت ! .. ولكن لا اعتراض لدي على تبديل ملابسي والظهور بالمظهر اللائق .. و .. آه ! .. انظري كيف يجري الدم فوق عنقي الآن ! .. إن حرارة النار تجعله لاذعا أليما !

واصرت على ان انفذ اوامرها قبل ان تسمح لي بان المسها بيدي .. ولبثت حتى سمعتني آمر الحوذي بإعداد

المركبة ، وإحدى الوصيفات بإحضار ربطة من الثياب واللوازم الأخرى ، وعندئذ فقط رضيت بأن اقوم بتضميد جرحها ، ومساعدتها فى استبدال ملابسها ..

وعندما فرغت من مهمتى ، اتخذت مجلسها على مقعد مريح بجانب الموقد ، وأمامها قدح من الشاى الساخن ، ثم بدأت تقول :

ــ تعالى الآن يا ايلين ، واجلسى امامى .. لكن ابعدى اولا بنت كاثرين المسكينة ، فلست احب ان اراها .. ولا ينبغى ان تحسبينى قليلة الاكتراث لموت كاثرين بسبب مسلكى الأحمق عند دخولى .. فقد بكيت ، انا الأخرى ، بمرارة شديدة ، وكان لدى من اسباب البكاء اكثر مما لدى اى إنسان غيرى ، إذ افترقنا متخاصمتين ، كما تذكرين ، ولن اغفر لنفسى ذلك قط .. ولكنى برغم ذلك ما كنت بالتى تشاطره احزانه ، ذلك الوحش المفترس .. آه ! .. ناولينى محراك النار ! .. هذا آخر شيء اقتنيته ، مما يمت إليه بصلة ..

ثم نزعت خاتم الزواج الذهبى من اصبعها الثالث والقت به على الأرض ، وراحت تدق عليه بالمحراك الحديدى ، بتابعة الحديث :

ــ سوف احطمه ، ثم ارمى به إلى النار ..

وشفعت القول بالفعل ، إذ تناولت الحلية المشوهة ووضعتها بين قطع الفحم المتوهجة ، واستطردت تقول :

ــ والآن .. عليه ان يشترى خاتما آخر ، إذا استطاع ان يدركنى ويعيدنى إليه ثانية ! .. وهو خليق بأن يحضر ليأخذنى من هنا ، لا لشيء سوى إغاظة ادجار والنيل منه .. لذلك لا اجرؤ على البقاء ، حتى لا تتملك هذه الفكرة رأسه الشرير ! .. ثم ان ادجار لم يكن بى شفوقا رحيما ، اليس كذلك ؟ .. ولست بالتى تتهافت على طلب معونته ، ولا بالتى تجلب عليه المزيد من المتاعب .. وقد الجأتنى الضرورة إلى ان انشد المأوى هنا ، ولكنى لو لم اعلم انه بعيد عن طريقى ، للبثت فى المطبخ ريثما اغسل وجهى ، واستدفىء قليلا ، وادعوك لتحضرى لى ما احتاج إليه ، ثم لرحلت ثانية إلى اية بقعة فى الأرض بعيدا عن متناول ذلك اللعين .. ذلك الشيطان المتجسد فى بدن إنسان ! .. آه ! .. لقد كان فى ثورة غضب جنونى ! .. ولو انه ادركنى وامسك بى ! .. من المؤسف ان هندلى ليس قرينا له فى القوة والبأس ! .. ولولا ذلك لما رحلت قبل ان اراه يمحى من الوجود ، لو أن هندلى كان قادرا على ذلك ..

فقاطعتها قائلة :

ــ حسنا .. مهلا يا آنسة ، ولا تنطلقى فى الكلام بهذه السرعة .. فسوف تفسدين وضع المنديل الذى ربطته حول وجهك ، وتجعلين الجرح يدمى من جديد .. هيا اشربى الشاى ، والتقطى انفاسك المتلاحقة ، وخلى عنك هذا الضحك .. فالضحك الآن لا يليق بهذا المنزل المنكوب ، ولا بحالتك المؤسفة !

ـ هذه حقيقة غير منكورة يا ايلين ! .. ولكن اصغى إلى هذه الطفلة .. إنها لا تكف عن النواح منذ قدومي .. فابعديها عن مسامعي ساعة او بعض الساعة ، فلن امكث هنا طويلا ..

فقرعت الجرس، وعهدت بالوليدة إلى عناية إحدى الخادمات .. ثم مضيت اسالها عما دفعها إلى التعجيل بالفرار من « مرتفعات ويذرنج » ، في مثل هذه الحالة الغريبة ، وإلى اين تزمع الذهاب ، ما دامت تأبى البقاء معنا .. فاجابت :

ـ كان ينبغي ، بل لقد كنت اود ، ان ابقى لأسرى عن ادجار واقوم على رعاية الطفلة المنكودة .. لهذين السببين ولأن « الجرانج » هو بيتي الطبيعي الحق .. ولكني اؤكد لك انه لن يدعني وشاني .. اتظنينه يطيق رؤيتي هنا ناعمة البال ، تكتسي عظامي الناحلة باللحم ، او يطيق مجرد التفكير في اننا نعيش هنا في هدوء وهناء ، ثم لا يصمم على ان ينفث سمه فيقضي به على راحتنا وسلامنا ؟ .. إنني الآن راضية مطمئنة إذ تحققت من كراهيته لي إلى الحد الذي يسوؤه فيه حقا ان يجدني على مدى السمع او مرمى البصر .. كنت الاحظ عندما امثل في حضرته كيف تتقلص عضلات وجهه، في حركات لا إرادية ، معبرة عما يضمره لي من حقد ، وما يكنه لي من بغضاء ، ينبعث بعضها من علمه بالاسباب القوية التي تدفعني إلى الإحساس بمثل هذه البغضاء نحوه ، وينشأ باقيها من نفوره الاصيل مني .. وهذه البغضاء قد اضحت من القوة بحيث تجعلني اشعر عن يقين بانه لن يسعى ورائي او يطاردني في ارجاء إنجلترا كلها ، إذا ما دبرت فرارا نهائيا ، ولذلك

يجب ان اذهب إلى مكان بعيد .. ولقد شفيت تماما من تعلقي السابق به ، ورغبتي المأفونة في ان القى مصرعي على يديه !.. بل شد ما اود الآن ان يقتل نفسه بيده ! .. لقد قضى على حبي له ، واطفأ شعلته المتقدة ، بحيث هدا بالي واسترحت!.. ومع ذلك فما زلت اذكر كيف احببته ، وما زلت اتصور كيف كان يمكن ان اتيم على حبه لو .. لا .. لا .. فحتى لو كان يهيم بي حبا ، فإن طبيعته الشيطانية كانت خليقة بان تكشف عن وجودها على صورة ما .. ولا بد ان كاثرين كانت ذات ذوق منحرف إلى حد شنيع حتى تنطوي له على كل هذا القدر من التقدير والإعزاز، برغم علمها حق العلم بطبيعته.. يا للوحش ! .. ارجو ان يمحو الله ذكراه من الوجود ، ومن ذاكرتي !

فقلت :

ـ صه ! .. صه ! .. إنه إنسان على اية حال .. الا كوني اكثر انصافا وإحسانا ، فهناك رجال اسوا منه بكثير برغم كل شيء ..

فردت على قائلة :

ـ ولكنه ليس إنسانا على الاطلاق ، ولا حق له في شفقتي وإحساني .. لقد وهبته قلبي ، فاخذه وظل يعصره ويخنقه حتى قضى عليه ، ثم القاه إلى ثانية جثة هامدة ! .. ان الناس يحسون بقلوبهم يا ايلين ، وما دام قد دمر قلبي ، فكيف يمكن ان اشعر نحوه بشيء ؟ .. وما كنت لاشفق عليه او

ارثى لحاله ، ولو ظل يئن ويتأوه من اليوم حتى يوم مماته ، ويذرف الدموع دما على كاثرين .. كلا .. كلا .. لن افعل حقا ..

وعندئذ اخذت ايزابيل فى النحيب ، ولكنها ما ان ذرفت بعض الدموع حتى كفكفت عبراتها واستطردت تقول :

ـ إنك سألتنى عما دفعنى إلى الفرار اخيرا ؟ .. لقد اضطررت إلى هذه المحاولة ، لأننى افلحت فى إثارة غضبه بما يفوق خبثه ولؤمه .. فإن انتزاع الاعصاب من جذورها ، بملاقط محماة فى النار ، يحتاج إلى مزيد من البرود والهدوء اكثر من الضرب واللطم فوق الرأس .. وقد ثارت ثائرته حتى نسى حذره الذى كان يفاخر به ، ولجأ إلى العنف القتال .. وملأنى السرور إذ استطعت ان اخرجه عن طوره ، فايقظ هذا السرور فى نفسى غريزة المحافظة على الحياة ، وهكذا انطلقت هاربة على الفور .. فلو عدت إليه يوما من الايام ، والقيت بنفسى بين يديه ثانية ، فإننى استحق ان ينتقم منى شر انتقام ..

وانت تعلمين ان مستر ايرنشو كان يجب ان يحضر الجنازة امس .. وقد ظل محتفظا بوعيه وصحوته ، ولم يقرب الخمر، لهذا الغرض .. فلم يذهب إلى الفراش، كعادته ، فى السادسة صباحا فاقد الوعى ، ليقوم عند الظهر فيستأنف الشراب .. وهكذا استيقظ مكتئبا يكاد الانقباض يقتله ، لا يصلح للذهاب إلى الكنيسة إلا كما يصلح للذهاب إلى مرقص .. وبدلا من

هذا او ذاك ، جلس بجوار المدفأة وراح يجرع كؤوسا مترعة من الجن او البراندى ..

اما هيثكليف ـ وإن بدنى ليقشعر عندما انطق باسمه ـ فقد ظل غريبا عن المنزل منذ يوم الاحد الماضى حتى اليوم .. ولست ادرى إن كانت الملائكة هى التى كانت تطعمه ، ام اخوه من الجان فى العالم السفلى ! .. ولكنه لم يتناول ذرة من الطعام معنا زهاء اسبوع .. كان يعود إلى المنزل فى الفجر ، فيصعد إلى حجرته ويوصد بابها عليه ، كأنما كان هناك من يفكر فى اشتهاء رفقته ! .. وهناك يظل يصلى ويبتهل كأنه من غلاة المتدينين .. ولكن المعبود الذى كان يبتهل إليه كان من التراب والرماد ! .. وكان « الله » ، إذا دعاه مختلطا على نحو غريب بأبيه الشيطان الاسود ! .. وبعد ان يتم هذه الصلوات الثمينة ، التى كانت تطول عادة حتى يبح صوته ويختنق فى حلقه ، فإنه يبرح الدار لا يلوى على شىء ، فيمضى قدما إلى الجرانج .. وشد ما اعجب كيف ان ادجار لم يرسل فى طلب شرطى يقوده إلى السجن ! .. اما انا ، فعلى ما كنت فيه من حزن وأسى على كاثرين ، فقد كان من المستحيل ان اتحاشى اعتبار هذه الفترة التى نجوت فيها من طغيانه المهين ، كإجازة سعيدة !

واستعدت مرحى بما يكفى لسماع خطب جوزيف الطويلة الأبدية دون بكاء ، وللمضى فى الدار ذهابا وجيئة فى خطى غير خطى اللص المذعور التى كنت امشى بها من قبل .. ولا احسبك تظنيننى خليقة بأن ابكى من اى شىء يقوله جوزيف،

ولكنه وهيرتون شر رفقة يمكن أن يبتلى بها إنسان .. ولخير
لى أن أجلس مع هندلى ، وأستمع إلى حديثه البشع المروع ،
من أن أجلس مع « السيد الصغير » ، وحاميه الأمين ، ذلك
الشيخ المأفون المرذول .. وعندما يكون هيثكليف فى المنزل ،
فإننى أضطر غالبا إلى الالتجاء إلى المطبخ فى رفقتهما ، أو
أرافق الجوع فى إحدى الحجرات الرطبة غير المأهولة .. أما
إذا كان خارج الدار ، كما كان شأنه طوال هذا الأسبوع ، فإنى
أقيم لنفسى منضدة ومقعدا عند ركن المدفأة بحجرة الجلوس ،
ولا أبالى بما يفعله مستر إيرنشو ليشغل به نفسه ، كما أنه
من جانبه لم يكن ليزج بنفسه فيما أتخذه أنا من ترتيبات .
وهو الآن أكثر هدوءا مما اعتاد أن يكون ، ما لم يستفزه أحد
أو يستثيره ، وأشد عبوسا واكتئابا ، وأقل غضبا وهياجا ..
ويؤكد جوزيف يقينه فى أنه أصبح رجلا آخر ، وأن الله قد
مس قلبه ، وهكذا نال الخلاص كأنما « طهرته النار » .. وقد
حيرنى أن أستشف علامة واحدة من علامات هذا التبدل
المزعوم ، ولكن ذلك ليس من شأنى فى شىء !

وكنت ليلة الأمس أجلس فى ركنى المعهود ، أطالع فى بعض
الكتب القديمة ، حتى ساعة متأخرة إذ أوشك الليل أن
ينتصف .. وكان الصعود إلى الطابق العلوى يبدو بشعا
مروعا ، مع تلك العاصفة الثلجية الضارية التى تهب فى
الخارج ، ومع انطلاق أفكارى باستمرار نحو فناء الكنيسة
وذلك القبر الحديث البناء ! .. ولم أكن أجرؤ على رفع أنظارى
عن الصفحات المفتوحة أمامى ، لأن ذلك المنظر الحزين كان

يسارع إلى احتلال مكانها أمام عينى .. وكان هندلى يجلس
فى الناحية الأخرى ، وقد أحنى رأسه وأسنده إلى راحته ،
ولعله كان يفكر فى ذلك الأمر نفسه ! .. وكان قد كف عن
الشراب عند مرحلة لم تصل به إلى فقدان الصواب ، وجلس
ساكنا لا يتحرك أو ينطق بكلمة نحو ساعتين أو ثلاث .. ولم
يكن يسمع فى المنزل كله صوت ، غير ولولة الرياح التى كانت
ترج النوافذ بين آن وآخر ، وغير طقطقة الفحم فى المدفأة ،
أو طقات المقراض كلما أزلت به ذبالة الشموع المحترقة ..
أما جوزيف وهيرتون فالأرجح أنهما كانا ينعمان بسبات عميق
فى فراشهما .. كان مجلسنا حزينا غاية الحزن ، وكنت خلال
قراءتى ، أزفر زفرات حارة ، إذ كان يبدو لى أن كل ما فى
العالم من بهجة وسرور قد نضب معينه وتلاشى من الوجود ،
ولن يعود إليه قط ثانية ..

وأخيرا مزق هذا الصمت الحزين صوت سقاطة باب المطبخ
وهى تتحرك فى مكانها ، إذ بكر هيثكليف فى عودته من جولته
الليلية عن المعتاد ، وأحسب أن العاصفة التى هبت فجأة كانت
السبب فى ذلك .. ولكن باب المطبخ كان موصدا من الداخل
بالمزاليج ، فسمعناه يدور حول الدار ليدخل من الباب الآخر
.. عندئذ انبعثت واقفة ، وعلى شفتى صيحة لم أستطع
كتمانها ، كانت تعبر عما يختلج فى نفسى ، وحدت برفيقى
الذى كان يحملق بأنظاره فى الباب إلى أن يستدير وينظر
إلى ، قائلا :

— سوف ادعه واقفا فى الخارج خمس دقائق اخرى ، فهل لديك مانع ؟

— كلا .. لك ان تدعه خارجا الليل بطوله من اجلى .. أسرع .. ضع المفتاح فى القفل وادفع المزاليج وراء الباب ..

وفعل ايرنشو ذلك قبل ان يصل القادم إلى واجهة الدار ، ثم عاد وجذب مقعده نحو الجانب المقابل من المائدة امامى ، حيث استند إليه ، ومال نحوى ، واخــذ يتفرس فى عينى متفحصا ، ليرى إن كنت اشاطره ذلك الحقد النارى الذى كان يتوهج فى عينيه .. ولكنه كان يبدو ويحس كانه قاتل يتاهب للفتك بفريسته ، فلم يستطع ان يدرك مشاعرى تماما ، وإن كان قد تبين منها ما يكفى لتشجيعه على الكلام .. فقال :

— ان لكلينا دينا عظيما لابد من اقتضائه من ذلك الرجل الذى يقف خارجا .. فإذا لم يكن احدنا جبانا رعديدا ، فإن فى وسعنا ان نوحد جهدنا لاستخلاص هــذا الدين .. فهل تراك رخوة خائرة العزيمة كاخيك ؟ .. وهل تودين احتمــال ما تعانينه حتى النهاية ولا تحــاولين مرة واحدة ان تثارى لنفسك ؟ ..

فأجبته :

— لقد اضنانى الاحتمــال الآن ، ولسـوف يسرنى ان اثار لنفسى على نحو لا يرتد على وبالا .. ولكن الغــدر والعنف حراب ذات نصال مرهفة فى كلا طرفيها ، وهى تجرح اولئك الذين يلجاون إليها باشد مما تفعل باعدائهم ..

فصرخ هندلى فى وجهى قائلا :

— ان الغدر والعنف هما الجزاء الحق للغدر والعنف ! .. وإننى يا مسز هيثكليف لا اسالك ان تفعلى شيئا ، بل اجلسى ساكنة فى مكانك وانسى ان لك لسانا يستطيع النطق ! .. والآن ، هل فى وسعك ان تفعلى ذلك ؟.. إننى على يقين من انك لن تقلى عنى سرورا واستمتاعا بمشاهدة نهاية الشيطان الأخيرة !.. إنه سوف يكون هــلاكك ، إذا لم تســبقى إلى إهلاكه ، وســـوف يكون دمارى .. الا لعنة الله على الوغد الجهنمى !.. إنه يقرع الباب كانما اصبح سيد هذه الدار !.. عدينى بان تمســكى لسانك ، وسترين انك قبــل ان تدق الساعة ، وقد بقيت ثلاث دقائق على الساعة الواحدة ، قد غدوت امراة حرة !

واخرج من صدريته ذلك الســـلاح الذى وصفته لك فى خطابى ، واراد ان يطفىء الشمعة لولا اننى بادرت إلى اختطافها منه ، وامسكت بذراعه قائلة :

— لن امسك لسانى .. كما انك لا يجب ان تمســه .. دع الباب موصدا ، واركن إلى الهدوء قليلا ..

فصاح الإنســان اليائس قائلا :

— كلا .. لقد انتهيت إلى قرار حاسم ، واقسم بالله ان انفذه .. سوف اســدى إليك جميلا برغم انفك ، وارد إلى هيرتون حقوقه .. ولا اراك فى حاجة لأن تشــغلى راســك بحمايتى ! .. لقد ذهبت كاثرين ، ولم يعــد فى الوجود من

يحزن على ، أو يلحقه العار بسببى لو اننى قطعت عنقى هذه اللحظة .. وقد حان الوقت لوضع نهاية لهذا الأمر ..

ولو اننى ناضلته وقتئذ فكأننى كنت أصارع دبا هائجا ، ولو ناقشته فكأننى كنت اجادل مجنونا فاقد الصواب .. فلم تعد امامى من حيلة الجا إليها سوى ان اعدو إلى إحدى النوافذ لأحذر ضحيته مما ينتظره من قضاء .. فصحت ف نبرات يخالجها الانتصار :

ـ خير لك ان تبحث عن مأوى لك ف مكان آخر الليلة ، فإن مستر ايرنشو يفكر ف ان يطلق عليك النار إذا اصررت على محاولة الدخول ..

ـ بل خير لك ان تفتحى الباب أيتها الـ ..

قال ذلك وهو يخاطبنى بلفظ رشيق لا أرى ما يدعو لترديده ! .. ولكنى عدت اقول له :

ـ لن أزج بنفسى ف هذا الأمر ، فما عليك إلا ان تدخل وتصاب بالرصاص إذا كان ذلك يسرك ! .. اما انا فقد اديت واجبى ..

وما انتهيت من كلامى حتى اغلقت النافذة ثانية ، وعدت إلى مكانى بجوار الموقد .. وإذ كانت ذخيرتى من النفاق قد فرغت ، فلم يعد فى وسعى ان اتظاهر بالقلق نحو الخطر الذى يتهدده ! .. اما ايرنشو فقد راح يسبنى ف حرارة ويؤكد اننى ما زلت احب الوغد بعد ، ويطلق على صنوفا من النعوت والصفات لما اظهرته من نفسية وضيعة ! .. اما انا فكنت ف

قرارة قلبى (ولم يؤنبنى ضميرى على ذلك قط) أرى كم تكون نعمة لهندلى ورحمة لو استطاع هيثكليف ان يضع نهاية لبؤسه ، وكم تكون نعمة لى وبركة لو استطاع هو أن يرسل هيثكليف إلى مثواه العادل ! .. وفيما كنت جالسة احدهد هذه الخواطر ، إذا بمصراع إحدى النوافذ الضيقة خلف مقعدى يهوى إلى الأرض فجاة بعد ان اهوى عليه هيثكليف بضربات عنيفة ، ثم بدا من خلال النافذة وجهه الأسود الهضيم .. ولم تكن القضبان الحديدية من السعة بحيث تسمح بمرور كتفيه ، فابتسمت ابتهاجا لما احسست به من امن مزعوم .. وكان الثلج الأبيض يغطى شعره وثيابه ، بينما كانت انيابه الحادة المفترسة تتالق ف الظلام ، وقد جعله البرد والغضب يكشر عنها ..

وما لبث ان راح « يزوم » كما يقول جوزيف ، قائلا :

ـ دعينى ادخل يا ابزابيلا ، وإلا جعلتك تندمين طويلا ..

فأجبته :

ـ ليس ف وسعى ان ارتكب جريمة قتل .. فإن مستر هندلى يقف مترقبا وف يده سكين ومسدس محشو بالرصاص ..

ـ افتحى لى باب المطبخ ..

ـ سوف يسبقك هندلى إليه .. ثم ما أتفه هذا الحب الذى تطوى عليه جوانحك فلا يجعلك تطيق رذاذا من الثلوج ! .. لقد كنا ترقد ف فرشنا هانئين ناعمين طالما كان قمر

الصيف مشرقا زاهيـــا ، ولكنك فى اللحظة التى تعود فيهـــا عصفة من عواصف الشتاء تسارع بالفرار والبحث عن ملجـــا ومأوى ! .. لو اننى كنت فى مكانك يا هيثكليف ، لذهبت ورقدت فوق قبرها حتى اموت اشــبه بكلب امين ذى وفاء !.. فان الدنيا لا تستحق العيش فيها الآن حقا ، اليس كذلك ؟.. وقد اوحيت إلى ، بما لا يقبل الشك ، بأن كاثرين كانت وحـدها كل ما فى حياتك من بهجة وسعادة ، ولست استطيع ان اتصور كيف تفكر فى ان تعيش بعد فقدها !

وعندئذ هتف رفيقى وهو يندفع نحو فجوة النافذة :

ـ إنه هناك .. اليس كذلك ؟. إذا استطعت ان اخـرج ذراعى فسوف اصيبه حتما !

واخشى يا ايلين ان تعدينى شريرة متأصلة الشر ، ولكنك لا تعرفين كل شىء ، فلا تحكمى على .. فاننى ما كنت لأشترك او احرض على اية محاولة للاعتداء على حياته ، مهما يكن من امر .. ولكن ما من شك فى اننى كنت اتمنى موته !.. ولذلك فقد خـاب املى إلى حد مخيف ، وانخلع قلبى من الرعب مما سوف يكون لحديثى العنيف من عواقب مروعة ، عندما القى بنفسه على سلاح ايرنشو وانتزعه من قبضته ..

وانطلقت الرصاصة مدوية .. اما الســكين فإنهـــا عندما ارتدت إلى مخبئها ، انطبقت على رسغ صاحبها .. وانتزعهـــا هيثكليف فى قـــوة خـــارقة ، حتى مزقت اللحم وهى تجـرى فوقه ، ثم القى بها فى جيبه وهى تقطر بالدماء .. وعنـدئذ

تناول حجرا ضخما وراح يحطم به الفاصل بين النافذتين ، ثم وثب إلى داخل الحجرة .. وكان غريمه قد وقع على الأرض فاقد الوعى ، من فرط الالم ، ومن فيض الدماء التى تدفقت من شريان كبير مقطوع .. فأخذ الوغـد يركله ويطؤه بقـدميه ويدق البلاط برأســه المرة تلو المرة ، وهو يمســك بى بيـده الأخرى ليحول دون استنجادى بجوزيف .. وكان يبذل جهدا فوق طاقة البشر فى نكران الذات ودفع عوامل الإغراء ، حتى لا يجهز عليه نهائيا .. ولكنه إذ بدا يلهث من التعب اخـيرا ، كفّ عن متابعة عمله الشيطانى ، وراح يجر الجسـم المسجى حتى الأريكة ، ثم مزق كم سترة ايرنشو واخذ يربط الجـرح فى خشونة وحشية وهو يبصـق ويلعن فى حمية لا تقـل عن التى كان يركله بها .. وإذ القيت نفسى قد تحررت من قبضته، لم اضيع شيئا من الوقت فى البحث عن الخـادم الشـيخ ، الذى ما كاد يستوعب فى بطء وتبلد فحوى قصتى العاجلة ، حتى اسرع يهبط الدرج كل اثنتين معا ، وهو يغمغم لاهثـا :

ـ ماذا يجب عمله الآن ؟.. ماذا يجب عمله الآن ؟..

فصاح به هيثكليف فى صوت كهزيم الرعد :

ـ هاكَ ما يجب عمله .. ان سيدكَ مجنون ، ولو ظل على هذه الحال شـهرا آخر ، فســوف ابعث به إلى مسـتشفى الأمراض العقلية .. ثم كيف اجترات ، بحق الشيطان على إيصـاد الأبواب دونى ، ايها الكلب الاهتم ؟ .. لا تقف هكذا تغمغم وتهمهم فى مكانك .. تعال ، فاننى لن اقوم على تمريضه



وكان غريمه قد وقع على الأرض فاقد الوعى ، من فرط الألم ، ومن فيض الدماء التى تدفقت من شريان كبير مقطوع ..

.. اغسل هذه الأقذار ونظف الجرح .. ولكن حذار من شرر شمعتك ، فان اكثر من نصف هذه الدماء من الكحول !

تهتف جوزيف وهو يرفع ذراعيه ، وعينيه ، إلى السماء فزعا ورعبا :

— وإذن فقد كنت تعمل على الفتك به ؟ .. إن عينى لم تقعا على مثل هذا المنظر قط من قبل ! .. فليكن الله ..

وعندئذ دفعه هيثليف دفعة قوية ألقت به على ركبتيه وسط الدماء ، ثم طرح إليه بمنشفة .. وبدلا من أن يأخذ جوزيف فى مسح الدماء ، ضم يديه معا ، وانطلق فى صلاة انتزعت ألفاظها العجيبة الضحك منى برغم إرادتى .. فقد كنت فى حالة عقلية تجعلنى أتأثر من أتفه شيء .. بل الواقع اننى كنت فاقدة الشعور متبلدة الحس كما يبدو بعض المجرمين وهم عند أعتاب المشنقة !

فقال الطاغية وقد نبهته ضحكتى :

— آه ! .. لقد نسيتك .. أنت التى يجب أن تقوم بهذا العمل .. اركعى على الأرض .. هل كنت تتآمرين معه ضدى أيتها الأفعى ؟ .. هيا .. هذا هو العمل الذى يليق بك ..

وراح يهزنى حتى اصطكت أسنانى فى قوة ، ثم طوح بى إلى جوار جوزيف .. وكان هذا الأخير ماضيا فى دعواته وابتهالاته حتى أتمها فى ثبات ، وعندئذ نهض ناذرا أن يذهب على الفور إلى « الجرانج » ، فقد كان مستر لينتون قاضيا ، ولو ماتت له خمسون زوجة فلن يتأخر عن التحقيق فى هذا الأمر ..

وكان من العناد والاصرار على تنفيذ عزمه بحيث رأى هيثكليف
من الأوفق أن ينتزع من شفتي ملخصا لما حدث .. كان يقف
فوق رأسي ، لاحنا بالشر والضغينة ، بينما كنت أنطق بشهادتي
في نفور ، ردا على أسئلته المتتابعة .. وقد احتاج الأمر إلى
جهد عظيم لإقناع العجوز بأن هيثكليف لم يكن المعتدى ،
خصوصا وأن اجاباتي كانت تنتزع مني في عناء .. ومهما يكن
من أمر ، فسرعان ما اقتنعه مستر ايرنشو نفسه بأنه ما زال
على قيد الحياة ، فقد أسرع جوزيف باحضار جرعة من الشراب
كان لها أثرها في إسعاف سيده ، فما لبث أن استرد الوعي
والحراك .. وإذ كان هيثكليف يدرك أن خصمه يجهل كل شيء
عن المعاملة التي لقيها منه بينما كان فاقد الرشد ، فقد دعاه
بالسكير المخرف ، وقال إنه سوف يغضى عن مسلكه الأثيم ، ثم
نصحه بأن يذهب إلى فراشه !.. وكم كان سروري إذ فارقنا
بعد أن ألقى بهذه النصيحة القيمة .. فاستلقى هندلي على
الأرض بجوار الموقد ، أما أنا فانصرفت إلى حجرتي ، متعجبة
من أنني أفلت منه بهذه السهولة ..

وعندما نزلت صباح اليوم ، قبل الظهر بنصف ساعة ، كان
مستر هندلي جالسا بجانب النار ، شاحب الوجه كالأموات ،
بينما وقف شيطانه الزنيم مستندا إلى المدفأة ، وهو لا يقل عنه
شحوبا واصفرارا .. ولم يكن يبدو على أحدهما ميل إلى
تناول الطعام ، حتى إذا ما طال انتظاري ، وبرد الطعام وفتر
فوق المائدة ، بدأت الأكل وحدي .. وكنت استشعر نوعا من
الرضى والسمو ، كلما التفت بين الحين والآخر نظرة على رفيقي

الصامتين ، واحس في أعماقي براحة ضميري الذي لا يثقله
وزر أو سوء .. فلما فرغت من طعامي ، تذرعت بالجرأة
لممارسة حريتي المعتادة في الاقتراب من الموقد ، فدرت حول
مقعد أيرنشو ، وجثوت في الركن إلى جانبه ..

ولم يلق هيثكليف نظرة واحدة نحوي ، أما أنا فقد رحت
أحدق النظر إليه وأتفرس في أساريره ، بقلب قوي غير هياب ،
وكأنها قد تحولت إلى حجر منحوت .. كان جبينه ، الذي
حسبته ذات مرة معبرا عن الرجولة الحقة ، والذي أحسبه الآن
كجبين الشيطان ، تظلله سحابة كثيفة من الهم والأسى ..
وكانت عيناه الثعبانيتان ، قد أطفأ بريقهما السهد ، وربما البكاء
إذ كانت أهدابهما وقتئذ رطبة ندية .. أما شفتاه اللتان تجردتا
من سخريتهما الضارية ، فقد أطبقتا في قوة وكأنما ختم عليهما
حزن دفين مكتوم .. ولو أنه كان شخصا آخر ، لأخفيت
وجهي بين يدي أمام مثل هذا الحزن العظيم .. أما في حالته
هو ، فقد وجدت فيها ما يرضيني ويثلج قلبي .. ومهما يكن
يبدو من الخسة والنذالة أن يسب المرء عدوا مهزوما ، إلا أنني
ما كنت لأدع هذه الفرصة تمر دون أن أرميه بسهم من يدي
.. فساعة ضعفه هي اللحظة الوحيدة التي أذوق فيها لذة
مقابلة الاساءة بالاساءة ..

فقاطعتها قائلة :

ـ بئس ما فعلت يا آنسة !.. ان المرء ليظن أنك ما فتحت
كتابا مقدسا في حياتك .. وإذا كان الله قد ابتلى أعداءك ،

فان ذلك خليق بان يكفيك .. فمن النذالة والكفران معا ان تضيفى عذابك إلى عذابه جل شأنه !

فاستطردت تقول :

ــ اننى اوافقك على ما تقولين يا ايلين بصفة عامة .. ولكن اى عذاب ذلك الذى يصيب هيثكليف ويرضينى ، إذا لم تكن لى يد فيه ؟.. اننى كنت ارجو ان تقل آلامه ، لو اننى كنت التى سببتها ، وكان هو يعرف اننى سببها .. آه !.. اننى مدينة له بالكثير !.. واننى لخليقة بأن آمل ان اصفح عنه ، بشرط واحد فقط .. ذلك ان اجزيه عينا بعين وسنا بسن ، وكل عصرة من الالم عصرة مثلها ، حتى اهبط به إلى مستواى ! .. وإذ كان هو البادىء بالعدوان والإساءة ، فدعيه يكن البادىء باستجداء الصفح ، وعندئذ .. عندئذ فقط يا ايلين يمكن ان أظهر لك شيئا من الكرم .. ولكن من المحال قطعا ان استطيع الانتقام لنفسى ، ولذلك فاننى لن استطيع الصفح عنه ..

ثم اردفت تتابع الحديث :

طلب هندلى بعض الماء ، فناولته الكوب ، ثم سألته عن حالته ، فقال :

ــ لست مريضا بالقدر الذى كنت اوده .. وبغض النظر عن آلام ذراعى ، فإن كل قيراط من بدنى يخزنى ويؤلمنى كانها كنت احارب فرقة من العفاريت ..

فكانت ملاحظتى التالية ان قلت :

ــ نعم .. ولا عجب !.. لقد اعتادت كاثرين ان تزهو بانها تقف بينك وبين اى اذى جسمانى .. وكانت تعنى ان احد الناس لن يجرؤ على إيذائك ، حتى لا يسىء إليها .. والآن تاكدت ان الناس لا يقومون حقيقة من قبورهم ، وإلا كان من الممكن ان تشهد كاثرين ليلة الأمس منظرا كريها منفرا !.. ألست تحس بالكدمات والقطوع فى صدرك وكتفيك ؟..

ــ لست ادرى تماما .. ولكن ماذا تعنين ؟.. هل اجترا على ضربى بينما كنت طريحا على الأرض ؟..

فهمست قائلة :

ــ كان يركلك ويدوسك بقدميه ويضرب رأسك بالبلاط ، وكان اللعاب يسيل من فمه شوقا إلى تمزيقك بانيابه .. لانه ليس إلا نصف إنسان ، واما باقيه فشيطان رجيم ..

فتطلع مستر ايرنشو بانظاره إلى اعلى محملقا ، مثلى ، فى وجه عدونا المشترك الذى كان مستغرقا فى همومه وآلامه بحيث كان يبدو غافلا عن كل ما يدور حوله .. وكان كلما طال وقوفه ، كلما ازداد انطباع افكاره السوداء على اساريره وضوحا ..

فتاوه هندلى ، وتلوى فى مقعده وهو يهم بالنهوض ، وكأنه لا يستطيع صبرا ، وقال :

ــ آه !.. لو ان الله يهبنى من القوة القدر الذى يكفى لان

اخنقه بيدى وانا فى النــزع الاخير ، لدخلت الجحيم راضــيا مسرورا !

ولكنه غاص فى مقعده ثانية ، وقد تملكه اليــأس ، بعد ما تبين قصوره عن النضال .. بينما كنت اقــول بصوت مرتفع :

ــ لا .. لا .. فيكفى أنه قتــل واحــدا منكم .. ان كل إنسان فى « الجرانج » يعرف ان شقيقتك كانت خليقة بالبقاء على قيد الحياة الآن ، لولا مستر هيثكليف .. وهــكذا فان الافضل للمرء ان يكون محل بغضــه وكراهيته من ان يكون موضع حبه وهيامه .. واننى كلما ذكرت كيف كانت السعادة تحلق فوقنا جميعا ، وكيف كانت كاثرين سعيدة هانئة قبــل مقدمه ، اراني العن ذلك اليوم من كل قلبى ..

واغلب الظن ان هيثكليف ادرك ما فى هذا القول من الصدق، اكثر من إدراكه ما كان يعتمل فى قلب الشخص الذى نطق به .. فقد ثار انتباهه لكلماتى ، كما رأيت ، إذ اخــذت عينــاه تمطران الدموع بين اهدابهما ، وراح يلتقط انفاســـه فى اناة مختنقة .. فرحت أحملق النظر إليه مواجهة ، ثم ضــحكت ساخرة .. فانطلقت نحوى من نافذتى جهنم الغائمتين نظرات نارية لم تدم اكثر من لحظة .. ولــكن الشــيطان الذى كان يطل منهما عادة كان كامدا ، غريقا ، بحيث لم يخالجنى الخوف لحظة من المجازفة بضحكة ساخرة اخرى ..

فقال الثاكل المحزون :

ــ قومى ، واغربى عن ناظرى ..

وقد فهمت كلمــاته من قبيل الحــدس والتخمين ، إذ كان صوته مختنقا لا يكاد يبين منه لفظ او حرف .. فاجبته :

ــ ارجو المعذرة !.. ولكنى كنت احب كاثرين ايضــا .. وها هو ذا شقيقها يحتاج إلى العناية التى سوف اقدمها له ، إكراما لذكراها .. اما وقد ماتت الآن ، فانى اراها فى هندلى .. ان عينيه تشبهان عينيها تماما ، لولا محاولاتك فى جعلهما بارزتين مجللتين بالسواد والحمرة !.. كما انها ..

فصاح قائلا :

ــ انهضى ايتها التعســة الحمقــاء ، قبل ان أسحقك حتى اقضى عليك ..

ثم هم بحركة جعلتنى اتحرك فى مكانى بدورى ، ولــكنى اردفت ، قائلة ، وقد اعددت نفسى للفرار :

ــ ولكن لو ان كاثرين المسكينة كانت قد وثقت بك ورضيت ان تتخذ لنفسها ذلك اللقب المضحك الحقــير المزرى ، لقب « مسز هيثكليف » ، لغدت وشيكا فى مثل هــذه الصــورة الاليمة .. انها ــ هى ــ ما كانت لتحتمل مســلكك الفظيع فى سكون وهدوء ، ولوجد بغضها واشمئزازها متنفسا ..

وكان ظهر المقعد المرتفع ، وشخص ايرنشو ، يحولان بينه وبينى .. وهكذا فانه بدلا من ان يحاول الانقضــاض على ، اختطف سكينا من فوق المائدة ، وقذف بها راسى ، فاصابتنى تحت اذنى ، واوقفت العبارة التى كنت على وشك ان انطق بها .. ولكنى انتزعتها ، ووثبت نحــو الباب ، ثم القيت إليه

بعبارة اخرى احسبها كانت اشد عمقا فى نفسـه من قذيفتـه التى رمانى بها !.. وكانت آخر لمحة رايتها منه ، أنه اندفع نحوى فى وحشية ، ولكن حال بينه وبين ملاحقتى ان مضيفه قام فاحتضنه ثم سقط الاثنان متماسـكين بجوار المدفأة .. وفى اثناء فرارى من المطبـخ ، طلبت إلى جـوزيف ان يدرك سـيده ، وتعثرت فى هيرتون الذى كان يدلى جروا رضـيعا من فوق ظهر المقعد فى مدخل المطبخ .. وفى سـعادة الروح التى انفلتت من يوم الحساب ، انطلقت اقفز واثب واطير طيرانا فى الطريق المنحدرة ، ثم ما لبثت ان تركت منحنياتها ومضيت اخترق البرارى راسا ، فاتدحرج فوق الشطآن ، واخـوض خلال المستنقعات ، واستحث خطاى نحو « الجرانج » الذى اتخذت منه منارا يهدينى سـواء السبيل .. واننى لافضـل الف مرة أن يحكم على بالسـكنى الابـدية فى تلك المنـاطق الجهنميـة ، من ان اقضى ولـو ليلة واحـدة تحت سـقف « مرتفعات ويذرنج » ثانية ..

وكفت ايزابيلا عن الكلام ، واخذت رشفة من الشـاى ، ثم نهضت وطلبت إلى ان اعاونها فى ارتداء قبعتها والتدثر بشال كبير احضرته لها ، وقد اعارت توسلاتى لها بالبقاء ساعة اخرى اذنا صماء ، ثم ارتقت مقعدا فقبلت صورة كاترين وصـورة ادجار ، ومنحتنى قبلة اخـرى ، واسرعت إلى العـربة وفى صحبتها كلبها « فانى » الـذى كان ينبح فى فـرح شـديد لاستعادة سـيدته .. وانطلقت بها العربة ، فلم تضع قدمها فى تلك الانحاء بعد ذلك قط .. ولكن نشأ بينها وبين سـيدى

تراسل منتظم بعد ان ازدادت الأمور استقرارا .. واعتقد انها اتخذت مقرها الجديد فى الجنوب ، بالقرب من لندن .. وهناك وضعت غلاما ، بعد بضعة شهور من فرارها ، اسمته « لينتون » ، وقالت إنه كان منذ مولده عليلا هزيلا شكسا ..

وقابلنى مستر هيثكليف فى القـرية ذات يوم ، وسألنى عن المكان الذى تقيم فيه ، فرفضت ان اخبره به .. فقال ان الامر ليس بذى اهمية لديه ، ولكن عليها ان تحذر الحضور للاقامة مع اخيها .. وليقم بالاتفاق عليها إذا شاء ، ولـكن على الا تساكنه او تقيم معـه .. ومع اننى أبيت الادلاء إليـه بأية معلومات ، فقد اكتشـف ، عن طريق بعض الخدم الاخـرين ، المكان الذى تقيم فيه ، ومولد الطفل ايضا .. ولكنه مع ذلك لم يقدم على إزعاجها او ملاحقتها .. وهو إحجام احسـبها تحمد له بواعثه وهى نفوره منها وكراهيته لها .. وكان غالبا ما يسألنى عن الغلام ، كلما رآنى .. ولما سـمع اسمه ابتسم فى عبوس وقال معقبا :

— انهم يريدون أن اكرهه ايضا .. اليس كذلك ؟..

— بل لا احسبهم يريدون أن تعرف عنه شيئا البتـة ..

— ولكن سوف آخذه ، عندما اريـد .. وليكونوا من ذلك على يقين ..

ومن حسن الحظ ان امه قضت نحبهـا قبل أن يحين ذلك الوقت .. وكان ذلك بعـد وفاة كاترين بثلاثة عشر عاما ، عندما كان لينتون الصغير فى الثانيـة عشرة من عمـره ، او اكثر قليلا ..



لم تتح لى اية فرصة للتحدث إلى سيدى غداة زيارة ايزابيلا غير المتوقعة .. فقد كان عزوفا عن الحديث لا تسمح له حالته بمناقشة اى موضوع .. فلما استطعت ان احمله على الإصغاء رأيت أن فراق شقيقته لزوجها قد سره كثيرا ، إذ كان يمقت هيثكليف مقتا شديدا بلغ من الغزارة ما لم اكن احسب ان اعتدال طبيعته يسمح به .. كان نفوره واشمئزازه من العمق والحساسية بحيث كان يتجنب الذهاب إلى اى مكان يحتمل أن يراه فيه أو يسمع عنه .. ولهذا السبب ، فضلا عن حزنه العميق ، تحول ادجار إلى ناسك يعتزل الناس والعالم .. تتخلى عن وظيفته القضائية ، وامتنع حتى عن الذهاب إلى الكنيسة ، وتجنب زيارة القرية فى جميع المناسبات ، وراح يمضى حياته فى عزلة تامة داخل حدود بستانه وضياعه ، لا يتجاوزها إلا فى جولة يقوم بها وحيدا بين البرارى ، أو زيارة يؤديها لقبر زوجته ، معظمها فى المساء أو الصباح الباكر قبل أن يخرج غيره من المارة من ديارهم ..

ولكنه كان من الطيبة والتدين بحيث لم يقم على الاستسلام للشقاء طويلا .. لم يكن ـ كما فعل الآخر ـ يدعو روح كاثرين إلى ملازمته وارتياده ! وساهم الزمن فى جعله يذعن للقضاء ، وكساه طابعا من الكآبة أحلى من المرح المألوف !.. وكان يستعيد ذكراها فى حب وحنان عميقين ، وفى الدعاء لها بالتنعم بعالم افضل ، لم يكن يشك البتة فى ذهابها إليه ! .. ولكن كان له عزاؤه وعواطفه الدنيوية ايضا .. فقد مكث

ايام حسبته خلالها لا يهتم على الاطلاق بالنبتة الصغيرة التى خلفتها الراحلة .. ولكن جموده ما لبث أن ذاب بأسرع مما تذوب الثلوج فى شهر ابريل ، حتى انه قبل ان تستطيع الصغيرة أن تنطق بكلمة أو تحبو خطوة ، كانت تحتل فى قلبه عرشا مكينا .. وسماها كاثرين ، ولكنه لم يكن يدعوها بهذا الاسم كاملا قط ، كما لم يكن يدعو كاثرين الأولى باسمها المصغر قط .. ربما لأن هيثكليف اعتاد ان يدعوها به .. كانت الصغيرة تسمى « كاثى » دائما .. وكان له فى ذلك ما يميزها عن امها ، وما يربطها بها فى الوقت نفسه .. وكان تعلقه بها ينبثق من صلتها بأمها اكثر مما ينبعث من أبوته لها ..

وقد اعتدت أن اقارن بينه وبين هندلى ايرنشو ، واكدح فكرى ، فى حيرة ودهشة ، للوصول إلى تفسير يقنعنى لما بدا من تناقض سلكيهما إلى هذا الحد ، فى ظروف متماثلة تماما .. كان كلاهما زوجا شديد الولع بزوجته ، غزير العاطفة نحو طفله ، ومن ثم لم يكن بوسعى أن افهم كيف لا يسلك كلاهما طريقا واحدة ، سواء أكانت نحو الخير أم نحو الشر .. ولكن هندلى ـ كما قلت لنفسى ـ وقد كان اقواهما مراسا واكبرهما عقلا ، قد اثبت انه اسوأ الاثنين واضعفهما .. فعندما ارتطمت سفينته ، هجر الربان مركزه ، فاندفع البحارة نحو التمرد والفوضى ، بدلا من ان يحاولوا إنقاذ سفينتهم المنكودة ، ولم يدعوا لها ذرة من الأمل فى النجاة .. وعلى العكس من ذلك ، اظهر لينتون تلك الشجاعة الحقة التى تتميز بها النفس المؤمنة المخلصة .. كان يؤمن بالله ويثق به ،

توهبه الله الراحة والسكينة .. غدا أحدهما معقلا للأمل ، والآخر فريسة لليأس .. اختار كل منهما نصيبه ، فقدر عليه أن يحتمله بحق .. ولكنك لا تريد أن تسمع منى هذا النقد الأخلاقى يا مستر لو كوود .. وتود أن تحكم بنفسك ـ مثلما استطعت أن أفعل ـ على كل هذه الأشياء .. أو هذا على الأقل ما سوف تظن أنك فاعله .. والأمر بعد ذلك سواء .

وجاءت نهاية ايرنشو مثلما كان يمكن للمرء أن يتوقعها .. وقد أعقبت وفاة شقيقته سريعا ، لا يكاد يفصل بينهما أكثر من ستة شهور .. ولم نكن فى « الجرانج » نعرف أقل شىء عن حالته قبل موته ، فكل ما استطعت أن أعرفه إنما سمعت به عند ما ذهبت للمساعدة فى معدات الجنازة .. فقد حضر مستر كينيث ليبلغ النبأ إلى سيدى ، فى صباح أحد الأيام ، وكان الوقت مبكرا ، فلم يشأ أن يصدمنى بذكر الأنباء السيئة مباشرة ، وإنما قال لى وهو يدخل راكبا جواده فى الفناء :

ـ حسنا يا نللى !.. إنه الآن دورك ودورى فى ارتداء ثياب الحداد .. فمن تظنينه قد غاب عنا اليوم ؟..

فسألته فى لهفة شديدة : من ؟..

فقال وهو يترجل ويعلق عنان الجواد فى الخطاف بجوار الباب :

ـ لماذا ؟.. عليك أن تحدسى بنفسك .. ثم عليك أن ترفعى طرف مريلتك ، فانى واثق من انك ستحتاجين إليها ..

فصحت قائلة :

ـ إنه ـ يقينا ـ ليس مستر هيثكليف ؟..

فقال الطبيب :

ـ ماذا ؟.. وهل كنت تجدين دموعا تذرفينها عليه ؟.. كلا .. فهيثكليف شاب متين الجسم قوى البنية .. وهو يبدو مشرقا ناضرا اليوم ، فقد رأيته للتو .. وقد بدأ جسمه يمتلىء باللحم سريعا منذ أن ضاع نصفه الحلو ..

فعدت أهتف فى صبر نافد :

ـ من إذن يا مستر كينيث ؟..

ـ هندلى ايرنشو .. صديقك القديم هندلى ، وصاحبى التعس المنكود ، ولو أنه كان شديد الضراوة معى فى هذه الآونة الطويلة الأخيرة .. آه !.. لقد قلت اننا سوف نفجر الماء من العيون !.. ولكن لا .. دعى عنك البكاء .. فقد مات مخلصا لخلقه ومبادئه !.. مات ثملا كأحد اللوردات !.. آه ! .. يا للفتى المسكين !.. اننى حزين من أجله كذلك .. فالمرء لا يملك إلا أن يحزن لفقد رفيق قديم ، ولو أنه كان ينطوى على أسوأ الصفات التى لا يتخيلها إنسان ، وفعل معى الكثير من أنواع الخداع الدنيئة !.. ويبدو أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره ، أى فى مثل سنك تماما .. فمنذا الذى كان يظن أنكما ولدتما فى سنة واحدة ؟..

واعترف أن تلك اللطمة كانت أشد وقعا على نفسى من صدمة وفاة مسز لينتون .. وبدأت ذكريات أيامنا القديمة تطوف بقلبى ، فجلست فى الشرفة ، ومضيت أبكى بحرقة كأنما أبكى قريبا تربطنى به صلة الدم ، راغبة إلى مستر كينيث أن يدعو خادما أخرى لتقوده إلى السيد .. ولم يكن فى

وسعى ان امنع نفسى من إعمال الفكر فى هذا السؤال : « اتراه لقى معاملة كريمة لائقة ؟ .. » فاننى مهما فعلت ، فان هذه الفكرة سوف تظل تلاحقنى وتنغص عيشى .. وقد كانت من الالحاح المضنى بحيث عزمت على ان التمس الإذن لى بالذهاب إلى « مرتفعات ويذرنج » ، لاساهم فى اداء الواجب الاخير نحو الفقيد .. وكان مستر لينتون ، فى بادىء الامر ، يابى كل الإباء ان يسمح لى بذلك ، ولكنى رحت ادافع فى حرارة وذلاقة لسان عن الحال التى يرقد فيها هندلى مجردا عن الاصدقاء والاحبة ، وقلت ان لسيدى القديم واخى فى الرضاعة ، من الحقوق فى خدماتى ما لا يقل عن حقوق مستر لينتون نفسه .. وفضلا عن ذلك فقد ذكرته بان هيرتون الطفل هو ابن شقيق زوجته ، وان من واجبه ، وهو اقرب الناس إليه الآن ، ان يكون حاميه وحارسه .. وقلت إنه ينبغى له ، بل يجب عليه ، ان يتحرى عن الحالة التى تركت بها املاك شقيق زوجته ، وان ينظر فى رعاية مصالحه .. ولكنه كان وقتئذ فى حالة لا تسمح له بمباشرة مثل هذه الشئون ، فامرنى بان اتكلم فى ذلك مع محاميه ، ثم سمح لى بالذهاب .. وكان محاميه هو محامى مستر ايرنشو فى الوقت نفسه ، فذهبت إلى زيارته فى القرية ، وسالته ان يصحبنى .. ولكنه هز راسه سلبا ، ونصح لى بان ندع مستر هيثكليف وشانه ، مؤكدا انه لو عرفت الحقيقة ، فسيتبين ان هيرتون قد ترك ادنى إلى المعدمين والشحاذين .. ثم اردف قائلا :

ـ لقد مات ابوه غارقا فى الدين ، بعد ان رهن كل ما يملكه .. والأمل الوحيد امام الوريث الطبيعى الآن ، هو ان نتيح له

الفرصة لكى يخلق فى قلب الدائن شيئا من الاهتمام به بحيث يميل إلى معاملته بنوع من الرفق والتسامح .

فلما بلغت « مرتفعات ويذرنج » ، اوضحت اننى جئت كى اشارك فى عمل الترتيبات اللائقة بالفقيد .. وقد اعرب جوزيف عن ارتياحه لحضورى ، وكان يبدو فى حزن عميق .. اما هيثكليف فقد قال إنه لا يرى ثمة ما يحتاج لوجودى ، ولكن فى وسعى ان ابقى ، وان آمر بما أراه نحو معدات الجنازة ، إذا رغبت فى ذلك .. ثم عقب قائلا :

ـ إن الاصوب ان يدفن جثمان هذا المعتوه فى مفترق الطرق دون احتفال من اى نوع .. فقد حدث ان تركته عشر دقائق بعد ظهر الامس ، فما كان منه فى هذه الفترة الوجيزة إلا ان اوصد ابواب المنزل فى وجهى ، ثم امضى الليل بطوله يشرب الخمر حتى قتل نفسه عن عمد .. وحطمنا الباب فى الصباح ، إذ سمعناه يرسل نخيرا عاليا كالحصان فوجدناه ملقى فوق الاريكة ، غائبا عن الصواب ، لا يفيق ولو سلخنا جلده او شققنا راسه ! .. وارسلت فى طلب كينيث ، فلم يحضر إلا وقد تحول هذا البهيم إلى رمة ! .. كان ميتا ، باردا ، متيبسا .. وهكذا ترين انه كان من العبث ان نحدث مزيدا من الضجة بسببه ..

وايد الخادم الشيخ هذه الرواية ، ولكنه غمغم يقول :

ـ كنت افضل ان يذهب فى طلب الطبيب بنفسه ، فاننى كنت خليقا بان اعنى بالسيد خيرا منه .. ثم انه لم يكن قد مات عند ذهابى .. لا شىء من ذلك البتة !

واصررت على ان تشيع جنازته بما يليق به من احترام ، فقال مستر هيثكليف إنه يدع لى التصرف فى هـذا الأمر كما اشاء ايضا ، ولكنه يود ان يذكرنى بان المال الذى سينفق على الجنازة إنما سيخرج من جيبه هو !.. وكان يبدو جامدا ، فى غير مبالاة ، لا ينم مظهره عن حزن أو فرح .. وإن دل على شيء البتة ، فإنما يدل على رضى صارم ، كما يرضى المرء عندما ينتهى بنجاح من مهمة شاقة .. بل لقـد لاحظت مرة فى الواقع شيئا يشبه الابتهاج فى مظهره ، وكان ذلك على وجه التحديد عندما حمل النعش إلى خارج المنزل .. ومع ذلك فقد كان من النفاق بحيث ارتدى ثياب الحداد عند تشييع الجنازة .. وقبل أن يغادر المنزل مع هيرتون ، حمل الغلام المنكود ووضعه فوق إحدى الموائد ، ثم غمغم يقول له فى تلذذ غريب : « والآن يا صغيرى العزيز ، لقد اصبحت لى وحدى ، وسوف نرى إن كانت الشجرة لن تشب معوجة كالشجرة الأخرى ، ما دامت الريح التى تهب عليها وتثنيها واحدة ! » .. وسر الطفل البرىء لهذا الحديث الذى لم يفقه منه شيئا ، وراح يعبث بسوالف هيثكليف ويربت على خده .. ولكنى تكهنت بالمعنى الذى يرمى إليه ، فقلت فى مرارة :

ـ إن هذا الصبى يجب أن يعود معى إلى « ثرشكروس جرانج » يا سيدى ، فهو آخر شيء فى العالم يمكن ان يصبح لك!

سألنى فى اهتمام : وهل قال لينتون ذلك ؟

ـ بلا شك .. لقد امرنى ان أعود به معى ..

فقال الوغد :

ـ حسنا .. إننا لن نناقش هذا الأمر الآن .. ولكن بى

ميلا إلى ان اربى غلاما صغيرا ، فبلغنى سيدك انه إذا حاول اخذ هذا الصبى ، فلا بد لى من ان احل ابنى محله .. ولست اتعهد بترك هيرتون يذهب دون ان انازع حق سيدك فى اخذه ، اما الآخر فانى واثق من إحضاره حتما .. فلا تنس ان تبلغه ذلك ..

وكان هذا التلميح كافيا لغل يدى .. فلما عدت اخبرت سيدى بما قال ، ولما كان ادجار لينتون قليل الاكتراث للأمر منذ البداية ، فإنه لم يتكلم عن التدخل فى الامر بعد ذلك قط .. ولست اعتقد أنه كان قادرا على عمل شيء ، حتى ولو كان راغبا فى ذلك ..

وهكذا أصبح الضيف سيد « مرتفعات ويذرنج » الآن ، حيث استولى عليها بيد من حديد ، واثبت للمحامى ـ الذى اثبت ذلك لمستر لينتون بدوره ـ أن ايرنشو قد رهن كل شبر من الأراضى التى كان يملكها ليحصل على المال الذى يشبع به جنونه بالمقامرة .. وكان هيثكليف نفسه هو المرتهن ..

وعلى هذا النحو اصبح هيرتون ـ الذى كان ينبغى ان يكون الآن السيد الأول فى المنطقة ـ خالى الوفاض لا يملك شيئا ، ويعتمد اعتمادا كليا على عدو ابيه اللدود ، ويعيش فى منزل اسرته كاحد الخدم ـ وإن كان محروما من ميزة الأجر الذى يتقاضاه الخدم ! ـ وهو عاجز عن استعادة حقوقه ، لانه محروم من الأصدقاء والأنصار ، ولانه يجهل كيف كان ضحية الغدر والخيانة ..

* * *

الفصل الثامن عشر

وتابعت مسز دين قصتها فقالت :

كانت الأعوام الاثنا عشر التي تلت تلك الفترة المشئومة ، أسعد أيام حياتي ، فكان أعظم ما لقيته فيها من متاعب ناشئا من تلك الأمراض الطفيفة التي كانت تنتاب أحيانا سيدتنا الصغيرة ، مثلما تصيب جميع الأطفال يستوي في ذلك الغني منهم والفقير .. وفيما عدا ذلك فإنها بعد أن اجتازت الشهور الستة الأولى ، نشأت كالشجرة الباسقة ، واستطاعت أن تمشي وأن تتكلم على طريقتها الخاصة ، قبل أن يزهر العشب مرة أخرى حول قبر مسز لينتون ، أي قبل أن يمر عام على وفاتها .. كانت أكثر « الأشياء » استمالة للقلب وأقدر من استطاع ، في يوم من الأيام ، أن يجلب شعاعا من الشمس إلى المنزل الموحش !

كان محياها آية من آيات الجمال ، فقد ورثت عيون آل ايرنشو السوداء الساحرة ، وورثت من آل لينتون بشرتهم الناصعة البياض ، وملامحهم الدقيقة ، وشعرهم الأشقر المجعد .. وكانت روحها عالية ، في غير خشونة .. وتميزت بقلب شديد الحساسية والحيوية إلى حد الإفراط في عواطفه .. وكنت كلما رأيت فيها ذلك الاستعداد للتعلق الشديد بما تهواه ، أذكر أمها .. ومع ذلك فلم تكن تشبهها ، لأنها كانت قادرة على أن تكون وديعة رقيقة كالحمامة ، كما كان لها صوت عذب

جميل ، ومحيا ترتسم فيه علائم التفكير والانشغال .. لم يكن غضبها ثائرا جموحا ، ولم يكن حبها ضاريا عنيفا ، وإنما كان عميقا حنونا .. ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بأنه كانت لها أخطاء تشين مزاياها .. من ذلك ميلها إلى الشقاوة ! .. بل وكانت لها إرادة عنيدة كتلك التي يكتسبها الأطفال المدللون سواء أكانوا مسالمين بطبعهم أم مشاكسين .. فلو صادف أن غاظها أحد الخدم فإنها لا تزيد على القول دائما : « سوف أخبر بابا ! .. » .. أما إذا لامها والدها ، ولو بنظرة واحدة ، فإنك تخاله أصابها بما يحطم القلوب ! .. ولست أعتقد أنه خاطبها يوما من الأيام بكلمة خشنة أو عبارة قاسية ..

وقد أخذ على عاتقه أمر تعليمها وتثقيفها بنفسه ، وجعل من ذلك مسلاة له .. ومن حسن الحظ أن سرعة قريحتها وميلها إلى العلم ، في شغف وفضول ، قد جعلا منها تلميذة مجدة ناجحة .. وكانت تدرس في سرعة ونهم ، وتلتهم الدروس التهاما أثلج قلب والدها وجزى تعبه في تعليمها خير الجزاء ..

ولم تكن حتى الثالثة عشرة من عمرها قد خرجت إلى ما وراء حدود البستان وحدها .. كان مستر لينتون ربما صحبها إلى خارج البستان ميلا أو ميلين ، في مرات نادرة .. ولكنه لم يكن يأمن أن يعهد بها إلى أحد سواه .. كان اسم القرية « جيمرتون » لفظا لا قيمة له ولا معنى في أذنيها .. وكانت الكنيسة هي المبنى الوحيد الذي اجتازت عتبته ، فيما عدا منزلها .. أما « مرتفعات ويذرنج » و « مستر هيثكليف »

فلم يكن لهما وجود بالنسبة إليها .. كانت تعيش فى عزلة
تامة ، وكانت فيما يبدو قانعة بذلك راضية تماما .. واقول
« فيما يبدو » لأنها كانت أحيانا كلما سرحت بأنظارها ، من
نافذة حجرة ألعابها ، فى المناظر البعيدة تقول فى تردد :

ـ كم ينبغى أن ينقضى من الوقت يا إيلين قبل أن أستطيع
السير إلى قمم هذه التلال ؟ .. شد ما أعجب ما الذى يقع
فى الناحية الأخرى منها .. هل هو البحر ؟ .

فكنت أقول :

ـ كلا يا مس كاثى .. بل تلال أخرى شبيهة بهذه تماما ..

وسألتنى مرة :

ـ ترى كيف يكون منظر هذه الصخور الذهبية إذا وقفت
تحتها ؟ .

وكان السفح الشديد الانحدار لصخرة « بنستون كراجز »
يلفت نظرها بصفة خاصة ، ولا سيما عندما تتألق فوقه أشعة
الشمس الغاربة ، بينما تلف الظلال سائر قمم التلال والأراضى
المجاورة لها .. فقلت لها إنها مجرد كتل من الحجر والصخور
الصلدة التى لا تحوى شيئا من التربة يصلح لإنبات شجرة
واحدة ..

فتابعت أسئلتها فى إلحاح :

ـ ولماذا تظل مضيئة وقتا طويلا بينما يخيم الظلام هنا ؟ .

ـ لأنها مرتفعة ارتفاعا عظيما عن مكاننا هذا .. كما أنه
ليس فى استطاعتك أن تتسلقيها ، فهى شديدة الارتفاع

شديدة الانحدار ، والثلوج تعلوها فى الشتاء قبل أن تصل
إلينا .. بل لقد وجدت الثلوج مرة ، فى أواسط الصيف ،
تحت ذلك التجويف الأسود الذى تريته فى الجانب الشمالى
الشرقى !

عندئذ صاحت فى جذل :

ـ آه ! .. هل ذهبت إلى هناك إذن ؟ .. سوف أستطيع
الذهاب بدورى إذن عندما أبلغ مبلغ النساء ! .. وهل ذهب
أبى إلى هناك يا إيلين ؟ ..

فسارعت إلى الإجابة قائلة :

ـ سوف يخبرك أبوك يا آنستى ، أنها لا تستحق عناء
الزيارة .. إن البرارى التى تتجولين معه فيها ، أعظم منها
جمالا وروعة ، كما أن « بستان ثرشكروس » هو أجمل مكان
فى العالم ..

فغمغمت كأنها تحدث نفسها :

ـ ولكنى أعرف البستان ولا أعرف هذه التلال ! .. ولسوف
يبهجنى أن أقف فوق تلك القمة العالية وأجيل أنظارى فيما
يحيط بى ! .. سوف يأخذنى مهرى الصغير « مينى » إلى
هناك يوما من الأيام !

وذكرت إحدى الوصيفات أمامها مرة اسم « كهف الحوريات »
فأدار ذكره رأسها بالرغبة فى تنفيذ هذا المشروع ، وكانت
لا تفتأ تكدر صفو والدها بالحديث عنه ، فكان يعدها بأن تقوم
بهذه الرحلة عندما تتقدم فى العمر .. ولكن مس كاثرين

كانت تقيس عمرها بالشهور ، فكان السؤال الذى لا يبارح شفتيها : « والآن ، هل كبرت بما يكفى لذهابى إلى بنستون كراجز ؟ .. » ولكن الطريق إلى هناك كان يدور ملاصقا « لمرتفعات ويذرنج » ، ولم يكن ادجار يميل إلى المرور بها ، وهكذا كانت تتلقى دائما هذه الإجابة : « كلا يا حبيبتى ! .. لم يحن الوقت بعد ! » .

قلت ان مسز هيثكليف عاشت أكثر من اثنى عشر عاما بعد ان هجرت زوجها ، وأضيف أن افراد اسرتها كانوا جميعا ضعاف البنية ، فكانت تنقصها ، كما تنقص ادجار ، تلك الصحة اليانعة التى تلقاها عادة فى أهل هذه المنطقة .. ولست ادرى عن يقين ماذا كان مرضها الأخير ، ولكنى أحسب انها وأخاها قد ماتا بمرض واحد ، هو نوع من الحمى بطيئة الظهور فى بدايتها ، ولكنها غير قابلة للشفاء ، وتلتهم الحياة سريعا فى النهاية .. وقد كتبت إلى أخيها لتخبره بقرب نهايتها بعد مرض الزمها الفراش اربعة شهور متوالية ، ورجته ان يذهب إليها ، إذا استطاع ، لأن لديها الكثير من الأمور التى تريد تسويتها ، ولأنها تريد أن تودعه الوداع الأخير ، وتعهد إليه بلينتون الصغير آمنة مطمئنة .. وكانت ترجو أن يترك هيثكليف لينتون مع خاله ، كما كان معها ، وتجد سرورا فى إقناع نفسها بأن اباه كان عزوفا عن الاضطلاع بإعالته أو تعليمه .. فلم يتردد سيدى لحظة واحدة فى الاستجابة لرجائها .. وعلى الرغم من نفوره من مغادرة منزله فى الزيارات العادية ، كما كان عهده فى الآونة الأخيرة فإنه سارع إلى تلبية تلك الدعوة ،

وعهد بكاثرين إلى عنايتى الساهرة أثناء غيابه ، واصدر لى أوامره المشددة بألا ادعها تجوب خارج البستان ، ولو فى صحبتى .. أما خروجها وحدها فأمر لم يخطر له على بال .

وطالت غيبته ثلاثة أسابيع .. ففى اليومين الأولين كانت الصغيرة المعهود بها لعنايتى تجلس فى ركن المكتبة وقد منعها الحزن من القراءة أو اللعب ، وهكذا لم تسبب لى إلا القليل من المتاعب وهى فى هذه الحالة من الهدوء والسكينة .. ثم تلت ذلك فترة من الملل المصحوب بضيق الصدر والمشاكسة .. وإذ كنت كثيرة المشاغل ، وقد تقدم بى العمر ، وليس فى وسعى أن اجاريها فى القفز والجرى والصعود والهبوط لتسليتها ، فقد استنبطت طريقة تستطيع بها أن تسلى نفسها بنفسها .. وذلك بأن ابعث بها لتقوم بالتجوال وحدها داخل حدود المزرعة ، سيرا على الأقدام تارة وراكبة مهرها الصغير تارة أخرى ، ثم اتلقها بالإصغاء فى صبر وأناة إلى قصص مغامراتها الحقيقية والخيالية ، عندما تعود من جولاتها ..

كان الصيف مشرقا بكل روعته وبهجته ، فكانت تجد متعة كبيرة فى هذه النزهات الانفرادية ، بحيث كانت كثيرا ما تبقى خارج الدار من وقت الإفطار حتى موعد الشاى بعد الظهر ، ثم تقضى امسياتها فى رواية قصصها الخيالية المثيرة .. ولم أكن اخشى أن تخترق الحدود المرسومة لها ، لأن البوابات كانت عادة محكمة الغلق ، ولأنى حسبتها لا تجرؤ على اجتيازها والتوغل خارجها وحدها لو انها كانت مفتوحة على مصراعيها . .

ولكنى سرعان ما تبينت ـ لسوء الحظ ـ ان ثقتى لم تكن فى موضعها .. فقد حضرت لى كاترين ذات صباح ، فى الساعة الثامنة ، وقالت إنها سوف تكون اليوم تاجرا عربيا يعبر الصحراء بقافلته ، وان على ان اوفر لها المزيد من المؤن لنفسها ولسائر أعضاء القافلة من الدواب ، وهى حصانها وثلاثة « جمال » ممثلة فى كلب سلوقى كبير واثنين من كلاب الصيد .. فاعددت لها كمية وفيرة من الفطائر والحلوى وجمعتها فى سلة علقتها على احد جانبى سرج الحصان ، وعندئذ اعتلت ظهره فى خفة ومرح ، وقد ارتدت قبعتها ذات الحافة العريضة والنقاب الحريرى الخفيف ليحميا راسها ووجهها من شمس يوليو القاسية ، ثم انطلقت تعدو بالجواد وهى تطلق ضحكة مرحة ، وتسخر من نصائحى وتحذيراتى بتجنب الإسراع فى السير ، والتبكير فى الحضور .. ولكن الخبيثة لم تظهر حتى موعد تناول الشاى ، ولم يعد من افراد قافلتها سوى الكلب السلوقى إذ كان متقدما فى العمر مغرما بالراحة والاسترخاء .. اما كاثى والمهر وكلبا الصيد فلم يظهر لأى منهم اثر فى اى مكان .. وبعثت بالرسل يجوسون خلال الممرات فى البستان والمزارع ، واخيرا مضيت للبحث عنها بنفسى .. والتقيت بعامل يشتغل فى إصلاح السياج حول أحد الحقول ، عند حدود مزرعتنا ، وسألته إن كان قد رأى سيدتنا الصغيرة ، فقال :

ـ لقد رايتها فى الصباح حيث طلبت منى ان اقطع لها غصنا من شجرة البندق ، ثم وثبت بجوادها فوق السور عند



ثم انطلقت تعدو بالجواد وهى تطلق ضحكة مرحة ، وتسخر من نصائحى وتحذيراتى بتجنب الاسراع فى السير ..

تلك البقعة التى يختفى فيها أكثر من غيرها ، وأسرعت تعدو حتى اختفت عن الأنظار !

ولك أن تتصور مبلغ ما اعترانى من جزع لدى سماعى هذه الأنباء ، وخطر لى على الفور أنها لا بد قد ذهبت إلى « صخور بنستون » التى كانت تتوق لرؤيتها عن كثب .. فهتفت أقول لنفسى : « ويلاه ! .. ماذا يكون مصيرها ؟ .. » ثم اندفعت خلال الثغرة التى كان العامل يصلحها فى السياج ، ومضيت قدما نحو الطريق ، أغذ السير كأننى فى سباق ، واقطع القفار ميلا بعد ميل ، حتى بلغت منحنى أرى عنده « مرتفعات ويذرنج » ، ولكنى لم أتبين أثرا لكاثرين من قرب أو من بعد .. وكانت « صخور بنستون » تقع على بعد ميل ونصف من مسكن مستر هيثكليف ، كما كان ذلك يبعد عن « الجرانج » بأربعة أميال ، وهكذا بدأت أخشى أن يهبط الظلام قبل أن أستطيع بلوغها ، ورحت أغمغم قائلة لنفسى : « وماذا يكون الحال لو كانت قد زلت قدمها فى أثناء تسلق الصخور ، فسقطت قتيلا ، أو كسرت بعض عظامها ؟ .. » والواقع أن جزعى كان أليما أشد الألم ، ولذلك غمرنى سرور الارتياح ـ بادىء ذى بدء ـ عندما كنت أسرع السير بجوار (المرتفعات) فإذا بى أرى « شارلى » أحد كلبى الصيد ، بل أشرسهما ، ملقى تحت إحدى النوافذ ، وقد ورم رأسه وأخذ الدم ينزف من أذنه .. ففتحت باب السور وأسرعت إلى المنزل ورحت أطرق بابه بقوة ولهفة ، وما لبث أن فتح عن امرأة كنت أعرفها ، كانت تعيش من قبل فى جيمرتون

والتحقت بالخدمة هنا على أثر وفاة مستر إرنشو ، فما كادت ترانى حتى صاحت :

ـ آه ! .. هل أتيت للبحث عن سيدتك الصغيرة ؟ .. لا تخشى شيئا .. إنها هنا بخير وسلامة .. ولكنى مسرورة لأنه لم يكن السيد هو الذى يطرق الباب ..

فغمغمت مبهورة الأنفاس من المشى السريع واللهفة والقلق :

ـ إنه ليس فى المنزل إذن ؟

ـ كلا .. كلا .. لقد خرج هو وجوزيف ولا أحسبهما يعودان قبل ساعة أو تزيد .. ادخلى وارتاحى قليلا ..

فدخلت ، وإذا بى أرى حملى الشارد جالسة بجوار المدفأة، تتأرجح فى مقعد صغير كان لأمها وهى صغيرة .. وكانت قبعتها معلقة فى مشجب على الجدار ، بينما كانت تبدو فى راحة واطمئنان كأنها فى بيتها ، وقد راحت تمرح وتتحدث فى طلاقة إلى هيرتون ـ الذى أصبح الآن شابا قويا فى الثامنة عشرة ـ وهى فى أحسن حالاتها النفسية .. وكان هيرتون يحملق بأنظاره إليها فى دهشة وفضول بالغين ، ولا يفقه إلا أقل القليل من ذلك الفيض المتتابع من الملاحظات والأسئلة التى كان لسانها الذلق لا يكف عن صبها فى أذنيه ..

وأخفيت فرحتى برؤيتها سالمة وراء قناع من الغضب والاستياء ، وصحت :

ـ مرحى .. مرحى .. يا آنسة ! .. سوف تكون هذه آخر مرة تركبين فيها جوادك ، حتى يعود أبوك من سفره ..

وما عدت اثق بك او اطمئن إلى اجتيازك عتبة الدار ايتهـا الفتاة الشقية !

فهتفت فى مرح وهى تثب من مجلسها وتسرع إلى جانبى :

ـ آه يا ايلين ! .. سوف تكون لدى قصة رائعة لأرويها لك الليلة ! .. ولكن اراك عثرت على ، فهل اتيت إلى هـذا المنزل فى حياتك قبل الآن ؟

فتجاهلت سؤالها ، وقلت فى صرامة :

ـ ضعى قبعتك وهيا إلى المنزل على الفـور .. وإننى شديدة الاستياء منك ، يا مس كاثى ، فقد اتيت خطأ جسيما .. ولا فائدة من العبوس او البكاء ، فإن ذلك لن يجـزى ما سببته لى من قلق وجزع بينما كنت أذرع المنطقة طولا وعرضا فى البحث عنك ! .. وكلما فكرت كيف عهد لى مستر لينتون بالمحافظة عليك ومنعك من الخـروج من المزرعة ، وإذا بك تتسللين إلى الخارج على هذا النحو ، ازددت استياء من مسلكك .. وهذا يدل على انك ثعلب صغير ماكر ، ولن يضع احد ثقته بكِ بعد ذلكَ قط !

وكانت قد بدات فى النحيب ، فإذا بها تكف دفعة واحدة ، وتقول :

ـ ما الذى فعلته ؟ .. ان ابى لم يامرنى بشىء .. كما انه لن يؤنبنى يا ايلين ، فإنه لم يكن قط صارما قاسيا مثلك !

فعدت اقول :

ـ هيا .. هيا .. سوف اربط لك شريط القبعة .. والآن

دعينا من المشاكسـة .. آه ! .. يا للعار ! .. اتكونين فى الثالثة عشرة ، وتتصرفين كطفلة صغيرة ؟

وقد فهت بهذه الملاحظة الاخيرة عندما دفعت القبعة عن راسها واسرعت تقف بجوار المدفأة بعيدا عن متناول يدى ..

وتدخلت الخادمة قائلة :

ـ رويدك ، ولا تكونى قاسية على الصبية الطيبة يا مسز دين ! .. إننا نحن الذين جعلناها تتوقف هنا ، إذ كانت تتوق إلى المضى فى طريقها ، خشية ان تقلقى عليها .. وقد عرض عليها هيرتون ان يذهب معهـا ، واحسب انه كان ينبغى أن يرافقها ، لأن الطريق فوق التلال شديد الوعورة ..

وكان هيرتون فى اثناء هـذا النقاش يقف واضعا يديه فى جيبى سراويله ، وقد استبد به الارتباك فلم يستطع النطق بكلمة واحدة ، وإن كان يبدو غير مرتاح إلى تطفلى !

واستطردت اقول غير مكترثة بتدخل المرأة :

ـ كم من الوقت يجب أن انتظرها ؟ .. سـوف يحل الظلام بعد عشر دقائق .. فاين مهـرك يا مس كاثى ؟ .. واين « نينكس » ؟ .. سوف اتركك وامضى لشأنى ، ما لم تسرعى .. فافعلى ما يحلو لك !

ـ إن المهر فى الفناء .. اما فينكس فمحبوس هناك ، لأنه معضوض ، وكذلك شارلى .. وقد كنت على وشك ان اخبرك بكل شىء فى هذا الامر ، ولكنك سيئة الخلق ، ولا تستحقين الاستماع إلى روايتى !

وانتقلت القبعة من الأرض ، واقتربت منها لأضعها فوق رأسها ثانية ، ولكنها إذ رأت الشاب والخادمة ينحازان لصفها ، بدأت تقفز حول الحجرة بعيدا عنى .. وشرعت فى مطاردتها فإذا بها تجرى هنا وهناك كالجرذ فوق قطع الأثاث وتحتها وخلفها ، مما جعل استمرارى فى المطاردة مثيرا للسخرية ، فضحك هيرتون والخادمة ، وشاركتهما هى فى الضحك ، وأمعنت فى الفحة حتى صحت أخيرا فى انفعال شديد :

ـ حسنا يا مس كاثى .. لو أنك عرفت منزل من هذا لكان يسرك أن تغادريه على الفور ..

فنظرت هى إلى هيرتون قائلة :

ـ إنه منزل أبيك ، أليس كذلك ؟

فلم ينطق إلا بكلمة « كلا » ، وقد أغضى بنظراته إلى الأرض واحمر وجهه احمرارا شديدا من الخجل .. فلم يكن يقوى على الصمود أمام نظراتها الثابتة ولو أن عينيها كانتا تشبهان عينيه تماما ..

فعادت تسأله :

ـ منزل من إذن ؟ .. سيدك ؟

فازداد تورد وجهه عمقا حتى غدا أرجوانى اللون ، ولكن عن شعور يختلف عن شعوره الأول ، وغمغم بكلمة سباب ، ثم أشاح بوجهه بعيدا ..

فاستطردت الفتاة المتعبة وهى توجه لى الخطاب :

ـ من هو سيده ؟ .. لقد كان يتكلم فيقول « بيتنا » ، و « قومنا » .. ولذلك حسبته ابن صاحب المنزل .. ثم إنه لم يقل أبدا « يا سيدتى » وهو يخاطبنى ، وكان يجب أن يقولها إذا كان خادما ، أليس كذلك ؟

فغدا وجه هيرتون رماديا داكنا كسحابة كثيفة مشحونة بالرعد ، بينما جذبت محدثتى فى صمت ، وألحت أخيرا فى إعدادها للرحيل .. وما لبثت أن خاطبت ابن خالها المجهول بمثل ما تخاطب واحدا من سياس « الجرائج » قائلة :

ـ اذهب الآن واحضر جوادى .. ويمكنك أن تأتى معى ، فإنى أريد أن أرى أين ينهض صائد العفاريت من وسط المستنقعات ، وأسمع الحديث عن الجنيات كما تسميهن .. ولكن أسرع ! .. ماذا دهاك ؟ .. لقد أمرتك بأن تحضر لى الجواد ..

فزمجر الشاب قائلا : « سوف أراك هالكة فى الجحيم قبل أن أكون خادما لك ! » .

فقالت كاثرين فى دهشة : سوف ترانى ماذا ؟

ـ هالكة فى الجحيم أيتها الساحرة السليطة اللسان !
فتدخلت قائلة :

ـ كفى يا مس كاثى ! .. لقد رأيت أنك زججت بنفسك فى رفقة غير لائقة بك .. أمثل هذه الألفاظ توجه إلى سيدة شابة ؟ .. ولكنى أرجوك ألا تبدئى النقاش والشجار معه ، وتعالى نبحث عن « المهر مينى » بنفسنا وترحل من هنا ..

فهتفت تقول ، وقد شلت الدهشة البالغة حواسها :

ـ ولكن كيف يجرؤ على مخاطبتى بهذه اللهجة يا ايلين ؟ .. اليس المفروض أن يطيع ما آمره به ؟ .. سوف اخبر ابى بما قلته ايها المخلوق الشرير .. والآن !

فلم يبد على هيرتون ما ينم على اكتراثه بهذا الوعيد ، وهكذا انبثقت الدموع من عينيها لشعورها بالمهانة ، وتحولت إلى المراة ، صائحة :

ـ اذهبى انت فاحضرى المهر واطلقى سراح الكلب فى التو واللحظة !

فاجابتها الخادم :

ـ حنانك يا آنسة !.. إنك لن تخسرى شيئا بالرقة وحسن المعاملة .. ومع أن مستر هيرتون هذا ليس ابن صاحب الدار ، إلا انه ابن خالك .. اما انا فلم يؤجرنى احد لخدمتك !

فصاحت كاثرين فى ضحكة ساخرة : هو ؟ .. هو ابن خالى انا ؟ ..

ـ نعم .. هذه هى الحقيقة ..

فنظرت إلى فى قلق بالغ وتابعت الحديث :

ـ آواه يا ايلين ! .. لا تدعيهم يقولون مثل هذه الأشياء الفظيعة .. لقد ذهب ابى ليحضر ابن عمتى من لندن ، وهو ابن احد السادة ! .. اما هذا ..

وكفت عن الكلام وانفجرت باكية ، إذ قلب كيانها مجرد التفكير فى وجود صلة من القرابة بينها وبين هذا المهرج ..

فهببت اقول لها :

ـ صه .. صه !.. إن الناس يمكن أن يكون لهم أبناء عمومة وابناء خؤولة عديدون ومن كل نوع ، يامس كاثى ، دون أن يسوؤهم ذلك .. وكل ما فى الأمر انه لا ينبغى لهم أن يختلطوا بهم أو يلزموا صحبتهم إذا كانوا شريرين بغضاء ..

ـ ولكنه ليس .. إنه لا يمكن أن يكون ابن خالى يا ايلين !

وكانت كلما امعنت التفكير فى الأمر ازدادت حزنا وهما ، حتى القت بنفسها بين ذراعى كانما تحتمى بى من هذه الفكرة ..

اما انا فقد اشتد بى الضيق والكدر منها ومن الخادمة معا لتصريحاتهما المتبادلة ! .. فلم اشك لحظة أن قرب وصول لينتون ، الذى ذكرته كاثى ، سوف يبلغ لمستر هيثكليف .. وكنت موقنة اشد اليقين من أن أول ما ستفعله كاثرين عند عودة والدها هو أن تطلب منه إيضاحا لما ذكرته الخادمة عن قرابتها لهذا الفتى الجلف السيىء الأدب !

وكان هيرتون قد أفاق من نفوره واشمئزازه من اعتباره أحد الخدم ، وبدا عليه التأثر لحزنها وأساها .. فمضى واحضر المهر امام الباب ، ثم اراد استرضاءها فأخذ من الوجار جروا صغيرا معوج السيقان ووضعه فى يدها وهو يطلب إليها أن تهدىء من روعها لأنه لم يكن يقصد شيئا .. فتمهلت فى البكاء ريثما رمقته بنظرة فاحصة ملؤها الخوف والفزع ، ثم انفجرت باكية من جديد !

ولم أستطع مغالبة الابتسام لهذا النفور من الفتى المسكين الذى رأيته الآن شابا رياضيا متين البنيان وسيم الطلعة ممتلئا

صحة وعافية ، إلا أنه يرتدى ثيابا خشنة رثة تلائم أعماله اليومية فى الحقل ، وجولاته الدائبة فى البرارى سعيا وراء الأرانب الجبلية وغيرها من أنواع الصيد والقنص .. ومع ذلك خيل إلى أننى أستطيع أن أستشف وراء محياه عقلا يحوى من الصفات والمزايا ما لم يتح لأبيه قط .. ومن المحقق أن هناك أشياء كثيرة طيبة تختفى وسط الأعشاب والحشائش ويطغى عليها تكاثرها الكثيف السريع فيخفى تحته نموها البطىء الذى لا يجد العناية الكافية لكى يؤتى ثماره .. ومع ذلك فقد رأيت الدلائل على تربة غنية قد تغل ثمارا وفيرة لو أتيحت لها ظروف أكثر ملاءمة .. وأحسب أن مستر هيثكليف لم يسىء معاملته بدنيا ، والفضل فى ذلك يرجع إلى طبيعة الفتى الذى شب لا يعرف الخوف ، والتى كانت بذلك لا تتيح الفرصة للإغراء بمثل هذا النوع من الاضطهاد .. فلم يكن على شىء من الخجل والاستكانة التى كان يمكن لهيثكليف أن يجد فيها دافعا لسوء معاملته له .. وهكذا يبدو أنه إنما كرس حقده وضغينته ليجعل منه بهيما جاهلا فظ الخلق .. فلم يلقن شيئا من مبادىء القراءة والكتابة ، ولم يزجر يوما عن خلة سيئة طالما لم تكن تسبب لسجانه ضيقا أو غضبا ، ولم تقد قدماه خطوة واحدة فى طريق الفضيلة ، ولا صين خلقه بنصيحة واحدة عن مهاوى الرذيلة .. وكان لجوزيف – فيما سمعت – نصيب وفير فى دماره ، إذ كان تحيزه له – وهو تحيز ناجم عن ضيق عقله – يدفعه إلى تملقه وتدليله مذكان صبيا صغيرا ، لأنه كان يعده رأس العائلة العريقة القديمة .. وبينما كان لا ينفكّ يتهم كاثرين أيرنشو وهيثكليف – عندما

كانا صغيرين حدثين – بإثارة السيد واستنفاد صبره ، فدفعه بذلك إلى البحث فى الخمر عن السلوى والعزاء مما كان يسميه « أساليبهما الشريرة » ، فإنه صار الآن يلقى عبء أخطاء هيرتون كلها على عاتق الغاصب الذى سلب أملاكه .. فإذا انطلق الصبى فى السباب لم يحاول تهذيبه ، وكذلك لم يحاول تقويمه مهما كان مسلكه مليئا بالذنوب والأخطاء .. ويظهر أن جوزيف كان راضيا كل الرضى وهو يراه ينحدر إلى أسوأ مدى .. فقد سمح بدمار الصبى ، ويترك روحه تهيم فى وديان الضلال ، لا لشىء إلا لاعتقاده بأن هيثكليف هو الذى سوف يكفر عن ذلك كله !.. وكان يعتقد أن هيرتون يجب أن يحفظ دماء أسرته العريقة فى ذرية ينجبها ، فكان يجد فى هذه الفكرة عزاء ما بعده عزاء .. وكان جوزيف لا يفتأ يصب فيه ، قطرة بعد قطرة ، كبرياء الاعتزاز باسم عائلته وسلالته .. وكان يود – لو وجد الجرأة على ذلك – أن ينمى فيه الحقد والكراهية نحو مالك « مرتفعات ويذرنج » الحالى .. ولكن فزعه ورهبته من ذلك المالك كانا قد بلغا مرتبة الفزع من الشياطين والأرواح الشريرة !.. فكان يقصر مشاعره حياله على الغمز والتلميح فى غمغمة خافتة ، وعلى الوعيد بالويل والثبور .. فى سره !.. ولست أزعم أننى أعلم عن يقين مجرى الأمور فى « مرتفعات ويذرنج » فى تلك الأيام ، وإنما أروى ما كنت أسمعه ، لأننى لم أكن أرى منها إلا أقل القليل .. وكان القرويون يؤكدون أن مستر هيثكليف رجل شحيح يسوم مستأجريه العذاب ويقسو عليهم .. غير أننى

اشهد ، والحق يقال ، أن المنزل من الداخل استعاد مظاهره القديمة من النظافة وتوفر وسائل الراحة ، تحت إدارة النساء اللواتى استخدمهن ، وان مشاهد العربدة والشغب التى كانت تمثل أيام هندلى لم يعد لها وجود بين جدرانه الآن .. فقد كان السيد من الحزن والكآبة بحيث عزف عن مخالطة الناس وتشدان صحبتهم ، خيارهم وأشرارهم معا .. وما زال كذلك حتى الآن ..

ومهما يكن من أمر فان ذلك لا شأن له بمجرى قصتى .. ولنعد إلى مس كاثى ، فقد رفضت قبول هدية الصلح ، وهى الجرو الرضيع ، وطلبت أن يؤتى لها بكلبيها « شارلى وفينكس » ، فجاءا يعرجان ، وقد تدلى رأساهما .. وعندئذ بدأنا فى رحلة العودة إلى المنزل ، على أسوأ ما تكون الرحلات، وكل واحدة منا تحمل همها وأساها .. ولم أفلح فى أن استخلص من سيدتى الصغيرة كيف قضت يومها ، سوى ذلك الشىء الذى حدسته ، وهو أن كعبتها كانت فى ذلك اليوم « صخور بنستون » .. وأنها وصلت بغير حادث حتى باب (مرتفعات ويذرنج) ، عندما تصادف اندفاع هيرتون وفى صحبته رفقة من الكلاب لم تلبث أن هاجمت قافلتها .. وكانت المعركة حامية الوطيس حتى استطاع سادة الفريقين التفريق بينهما .. وكان هذا الحادث سببا للتعارف بينهما ، فقد أطلعت كاثرين هيرتون على شخصيتها ، وأخبرته بما اعتزمته من الذهاب إلى التلال ، ثم سألته أن يرشدها إلى الطريق ، وأخيرا استدرجته إلى مصاحبتها .. وقد كشف لها عن أسرار « كهف

الجنيات » وعشرات غيره من الأماكن العجيبة .. ولكنها ، وقد كانت غاضبة منى ، لم تر أن تمن على بوصف ما شاهدته من الأشياء المسلية الغريبة .. ومع ذلك استطعت ان اتبين ان رفيقها ودليلها كان موضع رضاها حتى آذت شعوره بمخاطبته كأحد الخدم ، وحتى آذت خادمة هيثكليف شعورها بما زعمته من أنه ابن خالها !.. ثم جاءت تلك الألفاظ الشنيعة التى وجهها إليها فملأت قلبها حقدا وألما !.. وهى التى كانت تسمع دائما ألفاظ « حبيبتى » و « عزيزتى » و « ملكتى » و « ملاكى » يخاطبها بها كل إنسان فى « الجرانج » ، فوجه إليها الآن السباب الشائن من شخص غريب !.. انها لم تكن تفهم لذلك سببا .. وقد بذلت جهدا شاقا لأنال منها وعدا بإخفاء أحزانها عن والدها ، وشرحت لها كيف انه لا يرتاح إلى أى مخلوق ممن يسكنون « المرتفعات » ، وكم يكون مبلغ أسفه وأساه لو عرف أنها كانت هناك .. ولكن النقطة التى ألححت فيها كثيرا ، هى تلك الحقيقة الواقعة هى انها لو أفشت له أهمالى لأوامره، فربما بلغ به الغضب إلى حد يضطرنى إلى ترك المنزل .. ولم تكن كاثى لتقوى على احتمال هذه النتيجة الأليمة ، ومن ثم وعدتنى بكتمان الأمر ، إكراما لى ، وحافظت على هذا الوعد .. فقد كانت ، على أية حال ، فتاة رقيقة الشعور حلوة الشمائل.

* * *

الفصل التاسع عشر

ثم وافانى خطاب مجلل بالسواد ، يعلن موعد عودة سيدى . لقد ماتت ايزابيلا ، وكتب لى السيد طالبا تحضير ثياب الحداد لابنته ، واعداد حجرة خاصة ، وغيرها من وسائل الراحة ، لابن اخته الصغير .. وقد جنت كاثرين فرحا من التفكير فى قرب استقبالها لأبيها عائدا من رحلته ، واستسلمت إلى تصورات حماسية لما ترجوه من مزايا لاعدد لها لابن عمتها « الحقيقى » .. ثم حلت تلك الأمسية التى كنا نتوقع وصولهما فيها .. وكانت كاثرين منذ الصباح الباكر منهمكة فى ترتيب اشيائها الخاصة الصغيرة .. اما الآن ، وقد ارتدت ثوبها الأسود الجديد ـ ويا للطفلة المسكينة !.. إن موت عمتها لم يغمر نفسها بحزن واضح المعالم ـ فقد اضطرتنى بمضايقاتها الكثيرة المستمرة ، إلى السير معها حتى نهاية ارضنا لنكون فى استقبالهما ..

ومضت تثرثر ونحن نتمشى الهوينى فوق المرتفعات والمنخفضات المكسوة بالعشب الندى تحت ظلال الأشجار :

ـ ان لينتون لا يصغرنى إلا بستة شهور .. فما اجمل ان يكون رفيقى فى اللعب !.. وكانت عمتى ايزابيلا قد بعثت إلى ابى بخصلة من شعره الجميل ، فإذا به لا يقل نعومة عن شعرى وإن كان يفوقه فى خفته وشقرته .. وقد احتفظت بها فى عناية داخل صندوق صغير من الزجاج ، وكثيرا ما كنت

افكر أنه سوف يكون أمرا بهيجا لو أتيح لى ان ارى صاحبها عيانا !.. آه !.. اننى سعيدة حقا !.. فها هو ابى العزيز ، ابى المحبوب يوشك على المجىء !.. تعالى يا ايلين .. دعينا نجر إلى البوابة .. تعالى نجر معا ..

واخذت تعدو ، ثم تعود ثانية ثم تجرى لتعود من جديد عدة مرات ، قبل ان تسعفنى خطواتى المتئدة الكليلة ببلوغ البوابة .. وهناك جلست فوق العشب الأخضر على جانب الممر ، وحاولت جعلها تتذرع بالصبر فى الانتظار .. ولكن ذلك كان محالا .. فلم تستقر فى جلستها دقيقة واحدة .. وكانت لاتنى تهتف بى :

ـ ما اشد بطئهما فى الحضور !.. آه !.. اننى ارى سحابة من الغبار فى الطريق .. فلعلهما قادمان ؟.. ولكن لا .. متى يصلان إلى هنا إذن ؟ .. الا نمضى فى الطريق قليلا يا ايلين ؟.. نصف ميل مثلا ؟.. مجرد نصف ميل فقط ؟ .. الا قولى نعم .. دعينا نمض حتى تلك الخميلة من الشجر عند منعطف الطريق !

ولكنى رفضت فى إصرار .. واخيرا انتهى انتظارها ، فقد ظهرت عربة السفر وهى قادمة تعدو فى الطريق .. وصاحت مس كاثى ومدت ذراعيها إلى الأمام ، عندما رأت وجه ابيها يطل من النافذة .. وهبط ابوها من العربة وهو لا يقل عنها لهفة وشوقا ، فمضت فترة طويلة قبل ان يفكر احدهما فى شىء غير شخصيهما .. وانتهزت فرصة استغراقهما فى

العناق والقبلات ، فمضيت أختلس النظر إلى لينتون الصغير ، وكان نائما فى ركن المقعد ، متدثرا بمعطف سميك ذى أطراف من الفراء ، كما لو كنا فى صميم الشتاء .. فوجدته غلاما شاحب الوجه ، رقيق الجسم ، تحسبه فتاة لما يبدو فى مظهره من ضعف أنثوى .. وكان الشبه بينه وبين سيدى من القوة بحيث تخاله أخاه الأصغر .. ولكن كان فى مظهره من الوهن والضعف والمرض ما لم يكن لادجار لينتون قط .. ورآنى سيدى أنظر إلى الغلام ، فنصحنى ـ بعد أن صافحنى ـ بأن أغلق باب العربة وأن أدعه نائما لأن الرحلة أتعبته .. وكانت كاثى تتوق إلى أن تلقى عليه نظرة ، ولكن والدها طلب إليها أن ترافقه ، ومشيا سويا فى الحديقة ، بينما أسرعت أسبقهما لأخبر الخدم بمقدم السيد ..

وتوقفا عند أسفل الدرج الأمامى ، حيث قال مستر لينتون مخاطبا ابنته :

ـ والآن يا عزيزتى .. إن ابن عمتك ليس فى مثل قوتك أو مرحك ، ولا تنسى أنه فقد والدته منذ عهد قصير .. فلا تنتظرى منه أن يشاركك اللعب والجرى من أول يوم .. كما أرجو ألا تثقلى عليه بالكلام ، وأن تدعيه هادئا هذا المساء على الأقل ..

فأجابت كاثرين :

ـ سمعا وطاعة يا أبتاه ! .. ولكنى أريد أن أراه ، فإنه لم يطل من العربة مرة واحدة !

ووقفت العربة أمام الدرج فأوقظ النائم وحمل إلى الأرض حيث وقف إلى جوار خاله ، الذى وضع يده الصغيرة فى يد ابنته ، قائلا :

ـ هذه ابنة خالك كاثى ، يالينتون .. وقد أولعت بك من قبل أن تراك ، فلا تحزنها بالبكاء الليلة ، وحاول أن تبتسم الآن فقد انتهت الرحلة الشاقة ، ولم يبق إلا أن تنال قسطك من الراحة وأن تمرح كما تشاء ..

فتراجع الغلام نافرا من مصافحة كاثرين ، ورفع يده ليمسح عبراته التى بدأت تتلألأ بين أهدابه ، ثم قال :

ـ دعنى أذهب إلى الفراش إذن ..

فهمست قائلة له ، بينما كنت أقوده نحو باب المنزل :

ـ تعال .. تعال ، أيها الغلام الطيب .. إنك بذلك تدفعها إلى البكاء مثلك .. انظر كيف تبدو حزينة من أجلك !

ولست أدرى هل كان اكتئابها بسببه أم من أجله ، ولكن الواقع أن ابنة خاله كان يخيم على أساريرها من الحزن والكآبة مثلما كان يبدو فى محياه ، عند ما رجعت ثانية إلى جانب والدها .. ودلف ثلاثتهم إلى المنزل ، وارتقوا الدرج إلى قاعة المكتبة ، حيث كان الشاى معدا لهم .. ومضيت أنزع قبعة لينتون ومعطفه ، ثم أجلسته فوق أحد المقاعد بجوار المائدة ، ولكنه ما كاد يجلس حتى بدا فى النحيب من جديد .. فسأله السيد عن سبب بكائه ، فأجاب وهو يشرق بدموعه :



فبدأت تربت على خصلات شعره ، وتقبل وجنته ، وتقدم له الشاى فى طبق فنجانها كأنه طفل صغير ..

ـ إننى لا أستطيع الجلوس على المقعد .

فقال خاله فى حلم وأناة :

ـ اذهب إلى الأريكة إذن ، وسوف تحمل إليك إيلين الشاى ..

وشعرت بأن السيد قد لقى عناء شديدا طوال رحلته ، بسبب ربيبه العليل المشاكس ، وأنه قد تحمله فى صبر وحلم لا ينفذان ..

وراح لينتون يجر قدميه المتثاقلتين حتى بلغ الأريكة ، فاستلقى فوقها ، بينما حملت كاثى قدحها ومقعداً منخفضا ، وأنت تجلس بجواره .. ولبثت صامتة فى بادىء الأمر ، ولكن ذلك لم يطل كثيرا ، فقد استقر عزمها على أن تجعل من ابن عمتها الصغير ملهاة لها ، كما أرادت أن يكون بالنسبة إليها .. فبدأت تربت على خصلات شعره ، وتقبل وجنته ، وتقدم له الشاى فى طبق فنجانها كأنه طفل صغير ، فسره ذلك كثيرا ، لأنه فى الواقع لم يكن أكثر من طفل غرير ، وأخذ يجفف عينيه من الدموع ، وقد أضاء محياه بابتسامة خائرة !

فقال لى السيد بعد أن ظل يرقبهما لحظة :

ـ أوه !.. سوف يطيب له العيش هنا كثيرا ، إذا استطعنا أن نحتفظ به هنا يا إيلين .. فإن صحبة طفلة فى سنه لن تلبث أن تنفث فيه روحا جديدة ، وسوف تساعده رغبته فى الاستزادة من الصحة والقوة ، على اكتسابهما سريعا ..

فقلت فى نفسى : أجل .. إذا استطعنا أن نحتفظ به هنا !

.. فقد اكتنفتنى موجة من الريبة والتوجس الأليم ، من أنه لم يكن ثمة فى ذلك غير أمل ضئيل .. ورحت أفكر كيف يمكن لهذا الغلام العليل الهزيل أن يعيش فى « مرتفعات ويذرنج » ! .. وأية رفقة تلك التى ستجمع بينه وبين أبيه وهيرتون ، وأية دروس تلك التى سوف يتلقاها عنهما ؟

ومن المؤلم أن شكوكنا سرعان ما تحققت ، بل بأسرع مما كنت أتوقع .. كنت قد أخذت الصغيرين إلى الطابق العلوى ، بعد أن انتهيا من تناول الشاى ، وانتظرت بجانب لينتون حتى استغرق فى النوم ــ إذ لم يشأ أن أفارقه حتى ينام ــ ثم نزلت إلى الطابق الأرضى حيث وقفت إلى جوار المائدة فى البهو أشعل شمعة لحجرة نوم مستر إدجار ، عندما قدمت خادمة من المطبخ لتقول لى إن جوزيف ، خادم مستر هيثكليف ، بالباب يطلب التحدث إلى السيد .. فسرت فى بدنى رعشة عنيفة ، وقلت :

ــ سوف أسأله أولا عما يرغبه ، فأنها ساعة غير ملائمة لإزعاج الناس ، وفى اللحظة التى يعودون فيها من رحلة طويلة .. ولست أظن السيد على استعداد لأن يراه ..

وكان جوزيف قد عبر المطبخ ، بينما كنت أنطق بهذا القول ، ودلف إلى البهو .. كان متسربلا فى رداء الأعياد والآحاد ، وقد اكتسى وجهه الهضيم سمة من المشاكسة والتظاهر بالتقوى .. وكان يمسك قبعته بيد ، وعصاه باليد الأخرى ، وقد راح ينظف حذاءه فى ممسحة الأرجل ..

فقلت له ببرود :

ــ طاب مساؤك يا جوزيف .. أى أمر أتى بك إلى هنا الليلة ؟

فأجاب وهو يزيحنى بيده جانبا فى ازدراء :

ــ إنه مستر لينتون الذى أريد أن أتحدث إليه ..

ــ أن مستر لينتون على وشك الذهاب إلى الفراش ، فإذا لم يكن ما تريد قوله له شيئا هاما ، فإننى على يقين من أنه غير مستعد لسماعه الآن ..

ثم تابعت كلامى قائلة :

ــ وخير لك أن تجلس ، وتعهد إلى برسالتك ..

فراح يجيل أنظاره فى الأبواب المغلقة المتجاورة ، ثم قال :

ــ أيها حجرته ؟

فأدركت أنه مصر على رفض وساطتى ، وهكذا صعدت فى نفور بالغ إلى المكتبة ، وأعلنت للسيد مقدم ذلك الزائر الذى يحضر فى وقت غير ملائم للزيارة ، ناصحة له بأن يرفض مقابلته ويستمهله إلى اليوم التالى .. ولكن قبل أن يتسع الوقت أمام مستر لينتون ليفوضنى فى أداء ذلك ، كان جوزيف قد صعد فى أعقابى ، واندفع إلى داخل الحجرة حيث وقف عند طرف المائدة القصى ، واضعا كلتا قبضتيه

فوق قمة عصاه ، ثم اندفع يقول بصوت جهورى ، كأنما كان يتوقع معارضة او رفضا لمطالبه :

ـ لقد ارسلنى هيثكليف لآخذ غلامه ، ولن اعود بدونه !

فاخلد ادجار لينتون إلى الصمت لحظة ، وقد خيمت على اساريره سحابة من الحزن البالغ .. إنه من جانبه خليق بأن يشفق على الغلام ويرثى لحاله ، فوق انه ذكر آمال ايزابيلا ومخاوفها وتمنياتها الملهفة لولدها ، عند ما استودعته إياه وعهدت به إلى عنايته ورعايته ، فاستبد به حزن مرير لمجرد التفكير فى التخلى عنه ، وراح ينقب فى اعماق فكره وقلبه عن طريقة يتجنب بها الاستسلام لطلب هيثكليف .. ولكن القريحة لم تسعفه بأية خطة تستهدف هذه الغاية ، كما انه لو كشف عن اية رغبة فى الاحتفاظ بالغلام ، فان ذلك سوف يزيد أباه تشبثا واستمساكا به .. ولم يبق امامه إلا أن يسلمه لأبيه .. ولكنه ، مهما يكن من امر ، لن يرضى بإيقاظه من النوم فى هذه الساعة ..

وعندئذ قال فى هدوء :

ـ اخبر مستر هيثكليف ان ابنه سوف يأتى إلى « مرتفعات ويذرنج » غدا .. فانه فى فراشه الآن ، وفى حالة من الإعياء لا تسمح له بقطع هذه المسافة الطويلة .. ويمكنك ان تخبره

ايضا ان والدة لينتون كانت تود ان يبقى فى رعايتى ، إذ ان صحته الآن ضعيفة وتحتاج للمزيد من العناية ..

فصاح جوزيف وهو يدق الأرض بعصاه ، ويقول بلهجة آمره :

ـ كلا .. إن ذلك لا يعنى شيئا بالنسبة له .. فان هيثكليف لا يقيم وزنا للأم ، ولا لك !.. ولكنه سوف يسترد ابنه ، ولا بد لى من اخذه الآن !

فقال مستر لينتون فى حزم وصرامة :

ـ لن تأخذه الليلة .. والآن ، انزل حالا ، واذهب إلى سيدك فاعد على مسامعه ما قلته لك .. خذيه يا ناللى إلى تحت .. اذهب !

ثم امسك بذراع العجوز الثائر ودفعه إلى خارج الحجرة ، واغلق الباب دونه .. فصاح جوزيف وهو ينسحب فى بطء وتمهل :

ـ حسنا جدا .. سوف يحضر بنفسه غدا .. وعليك ان تطرده هو الآخر ، إذا جرؤت !

* * *

الفصل العشرون

رأى مستر لينتون ، تجنبا لخطر تنفيذ هـذا الوعيد ، أن يكلفنى بأخذ الصبى إلى دار أبيه ، فى الصباح الباكر ، على مهر كاثرين الصغير ، ثم أضاف قائلا :

ـ ما دام أمر هذا الغلام قد خرج من يدنا الآن ، ولم يعد لنا سلطان على مصيره ومستقبله ، سواء أكان حسنا أم سيئا ، فإنه يجب عليك ألا تذكرى لابنتى كلمة واحدة عن المكان الذى ذهب إليه .. لأنها لا يمكن أن تتصل به من الآن فصاعدا ، ومن الخير لها أن تظل جاهلة بوجوده فى مكان قريب ، لئلا يستبد بها القلق ، وتتوق إلى زيارة « المرتفعات » لرؤيته .. قولى لها فقط إن أباه قد بعث فى طلبه فجأة ، فاضطر إلى فراقنا ..

وقد أظهر لينتون الصغير تمنعا ونفورا من إيقاظه من فراشه فى الساعة الخامسة ، وأبدى دهشته البالغة عندما أخبرته بوجوب الاستعداد لرحلة جديدة .. ولكنى هونت عليه الأمر بأن قلت له إنه ذاهب لقضاء بعض الوقت مع أبيه ، مستر هيثكليف ، الذى اشتدت رغبته فى رؤيته بحيث لم يطق تأجيل هذه السعادة حتى يرتاح الغلام من رحلته الطويلة ..

فصاح الغلام فى حيرة غريبة ودهشة بالغة :

ـ أبى ؟.. أبى أنا ؟.. إن أمى لم تذكر لى قط أن لى أبا ! .. وأين يقيم هذا الأب ؟.. إننى أفضل البقاء مع خالى ..

ـ إنه يقيم على مسافة قريبة من « الجرانج » .. وراء هذه التلال تماما .. والمكان لا يبعد كثيرا عن هنا بحيث يمكنك أن تأتى سيرا على الأقدام عندما تستكمل صحتك وتستعيد قواك .. ثم إنك يجب أن تسر للذهاب إلى دارك ورؤية أبيك .. وعليك أن تحاول أن تحبه ، كما كانت تحب أمك ، وعندئذ سوف تجد منه كل حب وشغف بك ..

فسألنى لينتون :

ـ ولكن لماذا لم أسمع عنه من قبل ؟.. ولماذا لم تكن أمى تعيش معه كسائر الناس ؟..

ـ كانت أعماله تضطره بقاءه فى الشمال ، على حين كانت صحة والدتك تقتضى إقامتها فى الجنوب .

فعاد الغلام يسأل فى إلحاح :

ـ ولماذا لم تحدثنى أمى عنه إذن ؟.. لقد كانت تحدثنى كثيرا عن خالى فتعلمت أن أحبه من زمن طويل .. فكيف يمكن أن أحب أبى ، وأنا لا أعرفه ؟..

فقلت :

ـ أوه !.. إن الأطفال جميعا يحبون والديهم .. ولعل والدتك خشيت أن ترغب فى الذهاب إلى أبيك والإقامة معه إذا أكثرت من التحدث عنه أمامك . ولكن لنسرع الآن ، فإن الركوب مبكرا فى مثل هذا الصباح المشرق الجميل خير من النوم ساعة أخرى ..

ـ وهل هى ذاهبة معنا ؟.. تلك الفتاة الصغيرة التى رأيتها أمس ..

الفصل العشرون

رأى مستر لينتون ، تجنبا لخطر تنفيذ هــذا الوعيد ، أن يكلفني بأخذ الصبي إلى دار أبيه ، في الصباح الباكر ، على مهر كاثرين الصغير ، ثم أضاف قائلا :

ـ ما دام أمر هذا الغلام قد خرج من يدنا الآن ، ولم يعد لنا سلطان على مصيره ومستقبله ، سواء أكان حسنا أم سيئا ، فإنه يجب عليك ألا تذكري لابنتي كلمة واحدة عن المكان الذي ذهب إليه .. لأنها لا يمكن أن تتصل به من الآن فصاعدا ، ومن الخير لها أن تظل جاهلة بوجوده في مكان قريب ، لئلا يستبد بها القلق ، وتتوق إلى زيارة « المرتفعات » لرؤيته .. قولي لها فقط إن أباه قد بعث في طلبه فجأة ، فاضطر إلى فراقنا ..

وقد أظهر لينتون الصغير تمنعا ونفورا من إيقاظه من فراشه في الساعة الخامسة ، وأبدى دهشته البالغة عند ما أخبرته بوجوب الاستعداد لرحلة جديدة .. ولكني هونت عليه الأمر بأن قلت له إنه ذاهب لقضاء بعض الوقت مع أبيه ، مستر هيثكليف ، الذي اشتدت رغبته في رؤيته بحيث لم يطق تأجيل هذه السعادة حتى يرتاح الغلام من رحلته الطويلة ..

فصاح الغلام في حيرة غريبة ودهشة بالغة :

ـ أبي ؟.. أبي أنا ؟.. إن أمي لم تذكر لي قط أن لي أبا ! .. وأين يقيم هذا الأب ؟.. إنني أفضل البقاء مع خالي ..

ـ إنه يقيم على مسافة قريبة من « الجرانج » .. وراء هذه التلال تماما .. والمكان لا يبعد كثيرا عن هنا بحيث يمكنك أن تأتي سيرا على الأقدام عند ما تستكمل صحتك وتستعيد قواك .. ثم إنك يجب أن تسر للذهاب إلى دارك ورؤية أبيك .. وعليك أن تحاول أن تحبه ، كما كنت تحب أمك ، وعندئذ سوف تجد منه كل حب وشغف بك ..

فسألني لينتون :

ـ ولكن لماذا لم أسمع عنه من قبل ؟.. ولماذا لم تكن أمي تعيش معه كسائر الناس ؟..

ـ كانت أعماله تستلزم بقاءه في الشمال ، على حين كانت صحة والدتك تقتضي إقامتها في الجنوب .

فعاد الغلام يسأل في إلحاح :

ـ ولماذا لم تحدثني أمي عنه إذن ؟.. لقد كانت تحدثني كثيرا عن خالي فتعلمت أن أحبه من زمن طويل .. فكيف يمكن أن أحب أبي ، وأنا لا أعرفه ؟..

فقلت :

ـ أوه !.. إن الأطفال جميعا يحبون والديهم .. ولعل والدتك خشيت أن ترغب في الذهاب إلى أبيك والإقامة معه إذا أكثرت من التحدث عنه أمامك . ولكن لنسرع الآن ، فإن الركوب مبكرا في مثل هذا الصباح المشرق الجميل خير من النوم ساعة أخرى ..

ـ وهل هي ذاهبة معنا ؟.. تلك الفتاة الصغيرة التي رأيتها أمس ..

فأجبته : كلا .. إنها لن تذهب الآن ..

فأردف يسألني : وهل يذهب خالي معنا ؟..

قلت : كلا .. سوف تذهب إلى هناك في رفقتي ..

فعاد يستلقي في فراشه ويدس رأسه في الوسادة ، وقد استغرق في التفكير وعلا القطوب أساريره ، وما لبث أن انخرط في البكاء قائلا :

ــ إنني لن أذهب من غير خالي .. فما أدراني إلى أين تريدين أن تأخذيني !

وحاولت إقناعه بأن إظهاره النفور من لقاء أبيه أمر غير كريم .. ومع ذلك ظل يقاوم ، في عناد وإصرار ، محاولاتي تهيئته للخروج ، حتى اضطررت إلى الاستعانة بالسيد لملاطفته وملاينته حتى ينهض من الفراش .. وأخيرا قام الغلام المسكين ، بعد أن بذلنا له الوعود والتأكيدات ــ الزائفة طبعا ــ بأن غيابه لن يطول ، وأن مستر ادجار وكاثي سوف يزورانه هناك ، وغير ذلك من الوعود « الزائفة » الأخرى التي كنت أخترعها وأرددها على مسامعه بين وقت وآخر أثناء الطريق .. وقد أثر فيه الهواء النقي المنعش المحمل بعبير الزهور البرية ، وأشعة الشمس المشرقة ، والخبب الرقيق للمهر « مينى » ، بإشاعة الأمل والهدوء في نفسه وإحلالهما محل الاضطراب والقنوط .. فلم تمض لحظات على مسيرنا حتى بدأ يمطرني بالأسئلة عن بيته الجديد ، وعن قاطنيه ، في اهتمام وحيوية متزايدين .

فقد استدار ليلقى نظرة أخيرة على الوادي الخصيب الذي كان يتصاعد منه ضباب رقيق فيتجمع في سحابة أشبه بالقطن المندوف عند حافة القبة الزرقاء ، وما لبث أن سألني :

ــ هل « مرتفعات ويذرنج » مكان بهيج مثل « ثرشكروس جرانج » ؟ ..

فأجبته :

ــ إنه غير محاط بالأشجار الكثيفة مثله ، كما أنه ليس في سعته وفسحته .. غير أنك هناك تستطيع أن ترى جمال الريف حولك على مدى بعيد .. ثم إن الهواء هناك سوف يساعد على تقدم صحتك ، إذ هو أكثر جفافا وعذوبة .. ولعلك ، في بادىء الأمر ، تجد المبنى عتيقا قاتما ، مع أنه منزل محترم يعد ثاني اثنين هما أفضل منازل هذه المنطقة .. وسوف تستمتع بجولات لطيفة بين الأحراش ، كما أن هيرتون ايرنشو ــ وهو ابن خال مس كاثي ، وبالتالي يعد قريبا لك ــ سوف يريك أجمل المواقع وأروع المناظر .. وسيكون في وسعك أن تحمل كتابا ، عند ما يكون الجو جميلا ملائما ، فتتخذ من العشب الأخضر ركنا للدرس والاستمتاع بالقراءة .. كما أن خالك قد يصحبك في نزهة على الأقدام ، فإنه كثيرا ما يخرج للمشي فوق التلال ..

ــ وما شكل أبي ؟.. أهو شاب كخالي ، وفي وسامته وظرفه ؟..

ــ إنه في مثل سنه ، ولكنه أسود الشعر والعينين ، وأكثر منه عبوسا وصرامة .. وهو أطول قامة ، وأعظم هامة ..

ولعلك لا تجده ، فى بادىء الأمر ، رفيقا عطوفا ، لأنه ليس من طبعه ان يكشف عن عواطفه .. ولكن عليـك ان تكون معـه صريحا ودودا .. ومن الطبيعى ان يزداد حبا لك وولعا بك اكثر من اى عم او خال ، لانك ابنه ..

غمغم لينتون :

ـ اسود الشعر والعينين ؟.. اننى لا استطيع أن اتصوره .. وعلى ذلك فاننى لا اشبهه ، اليس كذلك ؟..

ـ لا تشبهه كثيرا ..

ولكنى قلت فى نفسى وانا انظر إليه : « بل انك لا تشبهه البتة » .. بينما رحت اتأمل بشرته الناصعة البياض وجسده النحيل ، وعينيه الواسعتين الناعستين ، اللتين تشبهان عينى امه ، إلا انهما لا يشع منهما اى اثر لروحها الوثابة المتلالئة ، فيما عدا لحظات خاطفة تومضان فيها من اثر المرض الذى ينهكه ..

وتنبهت على صوته وهو يغمغم :

ـ اليس من العجيب انه لم يحضر قط لرؤية امى او رؤيتى ؟ .. فهل رآنى من قبل ؟ .. إن كان قد فعل ، فلا بد اننى كنت طفلا صغيرا ، لأننى لا اذكر اقل شىء عنه !

فاجبته :

ـ لا تنس يا سيد لينتون ان ثلاثمائة ميل مسافة عظيمة ، كما ان عشر سنوات تبدو مختلفة فى طولها فى نظر شخص

كبير عما هى فى نظرك انت .. ولعل مستر هيثكليف كان يعتزم الذهاب إليكما من صيف لآخر ، ولكنه لم يجد الفرصة المواتية قط ، حتى فات الأوان الآن .. وارجو الا تزعجه بالأسئلة فى هذا الأمر ، فإن ذلك سوف يضايقه ، دون جدوى أو فائدة ..

وشغل الغلام بالاستغراق فى افكاره وتأملاته بقية رحلتنا ، حتى وقف بنا المهر امام بوابة الحديقة عند المنزل الريفى .. ورحت أراقبه خفية لأتبين فى أساريره المشاعر التى تختلج بها نفسه ، فرأيته يتأمل الواجهة المنقوشة ، والنوافذ ذات الحواف المنخفضة ، وخمائل عنب الديب المتناثرة ، واشجار الحور المائلة على سوقها ، فى اهتمام بالغ رصين ، ثم يهز رأسه ! .. كانت مشاعره الخاصة تفيض استهجانا للمنظر الخارجى لمقره الجديد ، ولكنه كان من اللباقة بحيث أرجأ تذمره وشكواه ، لعله يجد فى الداخل ما يعوضه عن هذا القبح الذى اثار اشمئزازه ..

وقبل أن يترجل عن مهره ، مضيت وفتحت الباب .. كانت الساعة وقتئذ قد بلغت السادسة والنصف ، وكانت الأسرة قد فرغت لتوها من تناول طعام الإفطار ، واخذت الخادم فى إزالة بقايا المائدة وتنظيفها .. وكان جوزيف يقف بجوار مقعد سيده ويتحدث إليه عن جواد اعرج ، على حين كان هيرتون يستعد للذهاب إلى حقل الدريس ..

فلما وقعت انظار مستر هيثكليف على ، هتف قائلا :

ـ اهلا بك يا نللى !.. لقـــد كنت اخشى ان اضطر للذهاب بنفسى إلى « الجرانج » لآخذ ما املكه .. ولكنى اراك احضرته إلى هنا ، اليس كذلك ؟.. دعينا نر ما يمكن ان نصـــنعه به !

ثم نهض من مجلســه ، ومشى إلى الباب بخطواته الواســعة، يتبعه جوزيف وهيرتون وقد تملكهما الفضول وحب الاســتطلاع .. فاجال لينتون المسكين عينيه المرتاعتين فى الوجوه الثلاثة التى كانت تتطلع إليه ..

ويدا جوزيف قائلا ، بعد ان تفحصه فى صرامة وإمعان :

ـ يقينا انه بادلك ايها السيد ، وارسل لك ابنه هو !

اما هيثكليف فقد ظل يحدج ابنه بنظرات متفرســـة حتى اصابت الغلام نوبة من الاضطراب والارتباك ، وعندئذ اطلق ضحكة ساخرة عالية وهتف يقول :

ـ ما شاء الله ! .. ما أبهى هذا الجمال وما أروعه ! .. وما أحلاه من « شيء » ســـاحر فتـــان ! .. اتريهنم كانوا يطعمونه القواقع واللبن الرائب يا نللى ؟ .. آه ! .. ليحق الشيطان روحى ! .. ولكن ذلك اسوأ مما توقعت بكثير .. ويعلم الشيطان اننى لم اكن مغرقا فى الامل والخيال !

تطلبت إلى الطفل الحائر المرتعد ان يترجل عن مهره ، وان يدخل البيت .. ولم يكن المنكود قد فهم تماما ما يعنيه حديث ابيه ، او هل كان هو المقصود به ام غيره .. والواقع انه لم يكن واثقا بعد ان ذلك الغريب المتجهم الذى يتفشى لسانه بالسخرية اللاذعة هو ابوه .. ولكنه تعلق بى وقد ازدادت

رعدته وارتعاشه .. فلما جلس مستر هيثكليف وصاح به : « تعال هنا » اخفى وجهه فى ذراعى وانخرط فى البكاء ..

نهد هيثكليف يـده وجذبه حتى اوقفه بين ركبتيه ، ثم امسك بذقنه ورفع راسه عاليا وهو يقول :

ـ صه .. صه !.. دعك من هـذا الهراء .. إننا لن نؤذيك يا لينتون .. اليس هذا اسمك ؟ .. انك ابن امك باكملك ! .. فاين نصيبى فيك ايها الكتكوت البكاء !

ونزع قلنسوة الغلام ، ودفع إلى الخلف غدائره الشــقراء الكثيفة ، وراح يتحسس ذراعيه النحيلتين واصابعه الصغيرة .. وكف لينتون عن البكاء اثناء هذا الفحص الدقيق ، ورفع عينيه الواســعتين الزرقاوين يتفحص بهما فاحصه !

وبعد ان اقتنع هيثكليف بان اطراف الصبى كانت جميعا سواء فى الرخاوة والضعف ، ساله قائلا :

ـ هل تعرفنى ؟

فاجابه لينتون وفى عينيه نظرة خوف جـوفاء : كلا ..

ـ لعلك سمعت منى إذن ؟ ..

فاجابه ثانية : كلا ..

ـ اتقول كلا ؟ .. ما اقبح ذلك من امك !.. الم توقظ فيك قط مشاعر الاحتـرام نحـو ابيك !.. دعنى اخبرك إذن انك ابنى .. وان امك كانت فاجرة شريرة إذ تركتك جاهلا حقيقة الأب الذى انجبك ! .. والآن لا ترع ولا تجفل منى ، ولا تدع

وجهك يحمر هكذا .. ولو ان ذلك يعد شيئا عظيما ان نرى ان الدماء التى تجرى فى عـروقك ليست بيضاء هى الأخـرى .. وكن صبيا طيبا ، اكن لك خير الآباء ..

ثم التفت نحوى قائلا :

ـ وانت يا نللى .. إذا كنت متعبة فيمكنك ان تجلسى .. وإلا تعودى إلى بيتك ! .. واحسبك سوف تروين كل ما ترينه وتسمعينه هنا لصاحب « الجرانج » التافه الحقير .. كما ان هذا « الشيء » لن يستقر أو يهدأ ما دمت تحومين حوله ..

فاجبته :

ـ حسنا .. ولكنى ارجو ان تكون رفيقا بالصبى يا مستر هيثكليف ، وإلا فإنك لن تستطيع الإبقاء عليه طويلا .. واذكر انه كل ما لك من قرابة فى هـذا العالم ، بل كل ما سـوف يكون لك ..

فقال ضاحكا :

ـ لا تخشى عليه شيئا ، فسوف اكون رفيقا به غاية الرفق .. ولكن لا ينبغى لاحـد غيرى ان يكون رفيقا به او مشفقا عليه .. فإنى غيور على احتكار عواطفه لنفسى ! .. وسوف ابدا الرفق به من الآن ! .. اذهب يا جوزيف واحضر طعـاما لإفطاره .. وانت يا هيرتون ، ايها العجل الشيطانى ، امض إلى عملك !

فلما خرج كل منهما لشأنه ، استطرد يقول :

ـ نعم يا نللى .. فإن ابنى هو المالك المرتقب لاملاككم .. ولست اود ان يموت قبل ان اكون واثقا من اننى وارثه !..

وفضلا عن ذلك فإنه ابنى ، واريد ان اتمتع بلذة النصر عندما ارى عقبى يصبح المالك الوحيد لضياعهم واملاكهم ، وعنـدما ارى ابنى يستخدم ابناءهم ليحرثوا أرض آبائهم وهم فيهـا اجراء يتلقون اجورهم من يده .. إن ذلك هو الاعتبار الوحيد الذى يجعلنى اطيق هـذا الجرو .. إننى احتقره لتفـاهة شخصه ، وامقته للذكريات البغيضة التى يثيرها فى نفسى .. ولكن هذا الاعتبار الذى ذكرته لك كاف كل الكفاية ، وهـو معى فى امان ، وسينال من الرعاية ما لا يقل عما ينفقه سيدك على ابنته .. لقد اعددت له حجرة فى الطابق العلوى، وفرشتها باثاث جميل .. كما عينت له مدرسا ، سوف يحضر ثلاث مرات كل اسبوع من مسافة عشرين ميلا ، ليعلمه كل ما ينبغى ان يتعلمه .. وقد امرت هيرتون ان يطيع امره .. والواقع اننى رتبت كل شيء بحيث يظل محتفظا بروح السيادة والسمو على كل من يعيش معه .. ولو اننى اشعر بالأسف العميق إذ وجدته لا يستحق كل هـذا العناء .. وإذا كنت قد تمنيت شيئا من السعادة فى هذه الدنيا ، فهو ان اجد ابنى شـيئا ذا قيمة خليقا بالإعجاب والتقدير والزهو .. وها انذا اجـد الخيبة المريرة والفشل الذريع مع هـذا التعس الكالح الوجه الذى لا يكف عن الانين والنواح !

وفيما كان يتحـدث إلى ، عاد جوزيف يحمل طبقـا من عصـيدة اللبن ، ووضعه امام لينتون الذى ظل يتململ امام الطعام التقليدى للمنـزل ، وينظر إليه شزرا ، ثم يقول إنه لا يستطيع ان ياكله ! .. ورايت الخادم الشيخ يشاطر سيده



عاد جوزيف يحمل طبقا من عصيدة اللبن ، وضعه أمام لينتون الذى ظل يتملل أمام الطعام التقليدى للمنزل ..

سخريته بالغلام على نطاق واسع ، ولو أنه كان مرغما على الاحتفاظ بشعوره فى أعماق قلبه ، لأن هيثكليف كان جادا فى ارغام اتباعه على احترام الغلام واعتباره سيدا ..

فحملق جوزيف فى وجه لينتون ، وقال وهـو يخفض من صوته خشية أن تسمعه :

ــ لا تستطيع أن تأكله ؟ .. ولكن السيد هرتون لم يكن يأكل شيئا سواه قط عندما كان صبيا صغيرا .. وأظن أن ما يصلح له يصلح لك تماما مثله ..

فأجابه لينتون فى لهجة آمرة قاسية :

ــ إننى لن آكله .. خذه من هنا ..

فاختطف جوزيف الطبق فى حنق وأحضره إلينا ، حيث دفع به تحت أنف هيثكليف قائلا :

ــ هل فى هذا الطعام شىء يعيبه ؟ ..

ــ ما الذى يمكن أن يعيبه ؟ ..

ــ لست أدرى .. ولكن ذلك الصبى الرقيق الأنيق يقول إنه لا يستطيع أن يأكله !! .. وأحسبه على حق ، فقد كانت أمه مثله تماما لا تستطيب طعامنا !

فأجابه السيد غاضبا :

ــ إياك أن تذكر أمه أمامى .. اذهب فأحضر له من الطعام ما يوافقه ويستطيع أن يأكله ، وهـذا كل شىء .. ما هو طعامه المعتاد يا نللى ؟ ..

فاقترحت ان يأتوا له بلبن ساخن او قدح من الشاى ؛ وسرعان ما تلقت مديرة المنزل التعليمات اللازمة لإعداد شيء من ذلك .. فسررت ، وقلت فى نفسى ان انانية ابيه سوف تساهم فى تهيئة وسائل الراحة له ، فإنه يرى تكوينه الضعيف وحاجته إلى ان يعامل فى رفق بالغ .. ولسوف يتعزى مستر ادجار عندما اخبره بالتحول الذى طرا على خلق هيثكليف ..

وإذ لم يعد لى عذر فى التوانى والبقاء اكثر من ذلك ، فقد تسللت خارجة ، بينما كان لينتون مشغولا ، يرد فى حياء ملاطفات احد الكلاب .. ولكنه كان من التيقظ والانتباه بحيث لم يمكن خداعه .. فما كدت اغلق الباب ، حتى سمعته يصيح ويردد فى فزع هذه الكلمات :

ـ لا تتركينى ! .. لا أريد البقاء هنا ! .. لا اريد البقاء هنا ..

وعندئذ سمعت صرير المزلاج وهو يرتفع ويهبط ليوصد الباب ، وادركت انهم يحولون بينه وبين الخروج ، فاسرعت امتطى ظهر المهر ، واستحثه على العدو .

وعلى هذا النحو انتهت مدة حراستى القصيرة لليتيم الصغير ..



الفصل الحادى والعشرون

كانت مهمتنا مع كاثى الصغيرة شاقة مؤلمة فى ذلك اليوم .. فقد استيقظت من النوم وهى تفيض مرحا وسرورا ، وتتلهف إلى لقاء ابن عمتها .. وما أن بلغتها انباء رحيله حتى راحت تذرف الدمع المرير ، وتنتحب فى نشيج اليم ، بحيث اضطر ادجار نفسه إلى تهدئتها بالتأكيد لها بأنه سوف يعود ثانية ، وإن كان قد احتاط فأردف قائلا : « ان استطعت إليه سبيلا » ، ولم يكن ثمة امل فى ذلك .. وقد افلح هذا الوعد فى تهدئة روعها قليلا ، ولكن الزمن كان اعظم قدرة وابعد اثرا .. فعلى الرغم من انها كانت لا تفتأ ، بين الحين والحين ، تسائل اباها عن موعد عودة لينتون ، فإنها قبل ان يقدر لها ان تراه مرة ثانية ، كانت ملامحه قد اختلطت فى ذاكرتها وجللتها غلالة من النسيان ، بحيث لم تعرفه عندما رأته !

وكنت كلما قابلت مديرة منزل « مرتفعات ويذرنج » عند زيارتى لقرية « جيمرتون » لقضاء مهمة فيها ، سألتها عن حال السيد الصغير وصحته ، إذ كان يعيش فى عزلة مثل كاثرين نفسها ، فلا يراه احد ولا يرى احدا .. فكنت استشف منها انه ما يزال على ضعف صحته ، وانه رفيق كثير النكد والمشاكسة .. وقد ذكرت لى انه يبدو أن مستر هيثكليف يزداد له مع الأيام كراهية ومقتا ، وإن كان يجهد فى إخفاء ذلك .. فقد كان شديد النفور من سماع صوته ، ولا يطيق جلوسه معه فى حجرة واحدة اكثر من بضع دقائق ، وقلما كانا يتبادلان

من الحديث أكثر من كلمات معدودات .. فقد كان لينتون يستذكر دروسه ويقضي أمسياته في حجرة صغيرة يطلقون عليها اسم « البهو » تجوزا ، أو يمضي يومه كله راقدا في فراشه إذ لم تكن تفارقه نوبات السعال أو البرد أو الأوجاع أو الآلام من نوع ما .. وأضافت المرأة قائلة :

— وما رأيت في حياتي مخلوقا رعديدا خائر القلب ، أو مفرطا في الحرص على نفسه مثل هذا الصبي .. فإنه سوف يموت حتما إذا تركت النافذة مفتوحة قليلا عند حلول المساء .. وإذا مسته نسمة من نسمات الليل العليلة فإنها سلاح قاتل فتاك ! .. ولا بد من أن توقد له المدفأة في أشد أيام الصيف حرا .. ودخان الطباق في غليون جوزيف غاز سام سوف يقضي عليه ! .. وهو يصر على أن تكون لديه دواما أنواع مختلفة من الحلوى والفطائر .. أما اللبن فلا ينقطع عنه .. اللبن دائما أبدا .. وهو في ذلك لا يعبأ البتة بما يصيبنا من برد الشتاء القارس عندما يختال نصيبنا منه .. وترينه دائما يجلس في مقعده بجوار المدفأة ، ملتفا بمعطفه ذي الفراء ، وإلى جانبه بعض الفطائر وقدح من الماء أو غيره من السوائل يضعه على رف المدفأة ليظل ساخنا فيرشف منه جرعة بعد أخرى .. وإذا أشفق عليه هيرتون وأتى ليسليه قليلا — وهيرتون طيب القلب ، وإن كان جافا خشنا — فإنهما سرعان ما يفترقان واحدهما يسب ويلعن والثاني ينشج بالبكاء والنحيب ! .. وفي يقيني أن السيد كان خليقا بأن يسر كثيرا لو أن هيرتون ظل يضربه حتى يحيله جثة هامدة ، لولا أنه ابنه . وكذلك أعتقد أنه خليق بأن

يطرده لو عرف نصف ما يضفيه الصبي على نفسه من رعاية وحيطة وتدليل ! .. ولكنه قلما يتعرض لخطر الإغراء بذلك ، فإنه لا يدخل « البهو » قط ، وإذا أظهر لينتون شيئا من هذه الأساليب في حجرة الجلوس حيث يقعد ، فإنه يطرده من الحجرة ويأمره بالصعود إلى الطابق العلوي على الفور ..

وقد حدست من هذا الحديث أن حرمان هيثكليف الصغير من العطف والحنان كلية قد جعله أنانيا سيئ الخلق حتى ولو لم يكن كذلك أصلا .. وهكذا تضاءل اهتمامي به ، ولو أنني شعرت بنوع من الأسى لمصيره ، ووددت لو أنه ترك معنا .. وكان مستر أدجار يشجعني على الحصول على المزيد من المعلومات عنه ، وأحسب أنه كان يفكر فيه كثيرا ، ولا يتأخر من المجازفة في سبيل رؤيته .. وقد طلب إلي مرة أن أسأل مديرة المنزل إن كان يأتي إلى القرية أحيانا ؟ .. فعلمت منها أنه لم يذهب للقرية إلا مرتين ، راكبا جوادا ، وفي صحبة والده .. وفي كل من المرتين كان يدعي أنه منهوك القوى ثلاثة أيام أو أربعة بعدها ..

وقد تركت تلك المرأة خدمة المنزل — إذا صدقت ذاكرتي — بعد عامين من مجيئه ، وخلفتها أخرى لم أكن أعرفها ، ما تزال هناك حتى الآن ..

ومرت الأيام « بالجرانج » على نهجها السابق البهيج ، حتى بلغت مس كاثي السادسة عشرة من عمرها .. ولم نكن نحتفي بعيد ميلادها على الإطلاق ، لأنه كان يوافق ذكرى وفاة سيدتي الراحلة .. وكان والدها قد اتخذ لنفسه عادة

لا تتغير ، هي أن ينفرد بنفســـه ذلك اليوم في المكتبة ، ثم يسير عند الغسق إلى فناء كنيســـة جيمرتون حيث يطيل زيارته لقبر زوجته حتى منتصــف الليل .. وهــكذا كانت كاثرين تترك لتحتفل بعيد ميلادها بنفسها ، وبوسائلها الخاصة ..

وفي العشرين من مارس من ذلك العام ، كان اليوم من أيام الربيع الجميلة المشرقة .. فما أن بدأ والدها اعتكافه حتى نزلت سيدتي الصغيرة ترتدي ثيــاب الخروج ، قائلة إنهــا استأذنت أباها لتقوم بجولة عند أطراف البراري والأحراش معي ، فأذن لها مستر لينتون بذلك ، بشرط أن نذهب إلى مسافة قريبة وأن نعود بعد ساعة ، وأردفت كاثي صائحة :

ــ أسرعي إذن يا أيلين .. إنني أعرف أين أريد الذهاب .. حيث يقيم سرب من طيور الأحراش ، أود أن أرى إن كانت قد أقامت أعشــاشها بعد ..

فأجبتها :

ــ لابد أن يكون ذلك على مسافة بعيدة وارتفاع عال .. فالطيور لا تعشش عند أطراف البراري ..

ــ كلا .. إنها ليست مســـافة بعيدة ، وقد ذهبت بالقرب منها مع أبي ..

فوضعت قلنسوتي واندفعت معها إلى الخارج ، دون أن أعير الأمر اهتماما أو أفكر فيه مرة ثانية .. وكانت تقفــز أمامي فتسبقني ، ثم تعود إلى جانبي ، ثم تجري أمامي من جديد كأنها كلب صيد صغير يرافق صاحبه .. ولقد تملكتني

ــ في بادئ الأمر ــ نشوة من الطرب عندما سمعت أصوات القنابر وهي تصدح من قرب ومن بعد ، واستمتعت بأشــعة الشمس الدافئة اللذيذة ، وعندما رحت أرقب طفلتي المدللة وبهجتي الغالية ، بغدائرها الذهبية السابحة في الهواء خلفها ، ووجنتيها المتوردتين المتألقتين ، كأنهما في نعومتهما وصفائهما ونضارتهما وردتان بريتان متفتحتان ، وعينيها اللتين تشــعان بهاء ومرحا ولا تظللها سحب المتاعب والأحزان .. كانت في تلك الأيام مخلوقة سعيدة ، وملاكا طاهرا .. وليتها استطاعت، وقتئذ ، أن تقتنع بما كانت فيه !

وما لبثت أن قلت :

ــ حسنا .. أين طيــورك البرية يا مس كاثي ؟ .. كان ينبغي أن نكون عندها الآن ، فقد بعدنا عن بساتين " الجرانج " كثيرا ..

وكانت تجيبني باستمرار :

ــ آه ! .. إنها غير بعيدة من هنا .. هي على بعد قليل يا أيلين .. تسلقي تلك الرابيـــة ، واعبري ذلك الجسر ، وما أن تصلي إلى الجانب الآخر حتى تجديني عند الطيور !

وكم من رابية تسلقتها وكم من جسر عبرته ، حتى بدأت أخيرا أحس بالتعب والإجهـــاد ، فقلت لها إننا يجب أن نتوقف ونعود أدراجنا .. وكانت قد سبقتني بمســـافة طويلة ، فطفقت أصيح منادية إياها ، ولكنها لم تسمعني ، أو لم تكترث لندائي ، إذ ظلت تقفز هنا وهناك ، حتى اضطررت

إلى تعقبها .. وأخيرا اختفت عن ناظرى داخل تجويف بين التلال ، وقبل أن أراها ثانية كانت أقرب إلى « مرتفعات ويذرنج » بميلين عنها إلى منزلها .. وتبينت شخصين يمسكان بها ، كان أحدهما ـ فيما اعتقدت ـ مستر هيثكليف نفسه .. كانت كاثى قد ضبطت متلبسة بسرقة الطيور ، أو على الأقل بالعبث فى أعشاشها ، فإن المرتفعات كانت ضمن أملاك هيثكليف ، وكان من حقه أن يعاقب من يسطو عليها .. فلما بلغت مكانهم ، وأنا أجر قدمى المكدودتين ، رأيتها ترفع يديها مؤكدة ما تنطق به ، وهى تقول :

ـ إننى لم آخذ شيئا ، ولم أجد شيئا .. ولم يكن فى نيتى أن آخذها لو وجدتها .. ولكن أبى أخبرنى بوجود الكثير منها هنا فوق التلال ، فوددت أن أرى البيض ..

فرمقنى هيثكليف بأنظاره وهو يبتسم ابتسامة شريرة تنم عن معرفته من تكون الفتاة ، وبالتالى عن نواياه الخبيثة نحوها ، ثم سأل عمن عساه يكون « أبوها » .. فأجابته :

ـ إنه مستر لينتون صاحب « ثرشكروس جرانج » .. وقد أدركت أنك لم تعرفنى وإلا ما خاطبتنى بهذه اللهجة !

فقال فى سخرية :

ـ أتحسبين إذن أن أباك عالى القدر رفيع المكانة موفور الاحترام ؟ ..

فراحت كاثرين تحدق فيه بأنظارها فى دهشة واستغراب ، قائلة :

ـ ومن تكون أنت ؟ .. ثم إننى رأيت هذا الرجل من قبل ، فهل هو ابنك ؟ ..

وأشارت إلى هيرتون ، الذى كان ثانى الاثنين ، والذى لم يكن قد اكتسب إلا زيادة فى الحجم والقوة فضلا عن عامين من عمره ، وإن كان يبدو على ما عهدته فيه من خشونة وجلافة ..

فأسرعت أقاطعها قائلة :

ـ سوف يطول غيابنا ثلاث ساعات، يا مس كاثى، لا ساعة واحدة .. ولا بد لنا حقا من العودة إلى المنزل الآن ..

فأجابها هيثكليف وهو يزيحنى جانبا :

ـ كلا .. إن هذا الرجل ليس ابنى .. ولكن لى ابنا رأيته أنت من قبل أيضا .. ومع أن مربيتك فى عجلة ، إلا أننى أرى من الخير لك ولها أن ترتاحا قليلا .. فهل لك أن تدورى حول هذه الدغلة ، وتسيرى إلى منزلى ؟ .. إنكما إذا ارتحتما قليلا تستعودان إلى داركما فى وقت مبكر عما تفعلان لو سرتما الآن .. ثم إنك سوف تلقين منا كل ترحاب ..

فهمست إلى كاثرين أنه لا ينبغى إطلاقا أن تلبى هذه الدعوة ، وأن تثق فى كلامى بأن هذه الزيارة أمر لا يمكن حدوثه ، فإذا بها تسائلنى بصوت عال :

ـ لماذا ؟ .. لقد تعبت من الجرى ، والعشب هنا ندى لا أستطيع الجلوس فوقه ، فدعينا نذهب يا إيلين .. ثم إنه يقول إننى رأيت ابنه .. ولكنى أحسبه مخطئا فى ظنه .. وفى وسعى أن أحدس أين يقيم .. فى ذلك المنزل الريفى

الذي زرته اثناء عودتي من « صخور بنستون » ذلك اليوم .. الست تقيم هناك ؟ ..

فأجاب هيثكليف :

ـ بلى .. وانت يا نللي ، امسكي لسانك ، فإن زيارتها لنا سوف تكون مبعث سرور لها .. تقدم امامنا يا هيرتون مع الآنسة ، اما انت يا نللي فسوف تسيرين معي ..

نصحت ، وقد اخذت احاول التملص من قبضته على ذراعي :

ـ كلا .. إنها لن تذهب إلى مثل هذا المكان !

ولكنها كانت وقتئذ توشك ان تصل إلى الدرج الخارجي للمنزل ، بعد ان راحت تركض باقصى سرعتها حول ادغال الاحراش .. ولكن المعين لمرافقتها لم يستمر في مهمته ، فقد اسرع بالإبتعاد عند جانب الطريق واختفى عن الانظار ..

فاستطردت قائلة :

ـ إن ما تفعله يا مستر هيثكليف خطا بالغ الخطورة .. فانت تعرف انك لا تضمر خيرا .. سوف ترى الفتاة لينتون ، وسوف تعود لتروي كل شيء لابيها بمجرد وصولنا ، وبذلك ينصب اللوم كله فوق راسي ..

ـ إنني اريدها على ان ترى لينتون ، فإنه يبدو احسن حالا هذه الأيام ، وهو قلما يكون في حالة تصلح لأن يراه احد .. وسوف نقنعها الآن بان تبقى امر هذه الزيارة في طي الكتمان .. فاين الضرر في ذلك ؟ ..

ـ الضرر في ذلك هو ان والدها سوف يحنق علي إذا تبين انني سمحت لها بدخول منزلك .. كما انني مقتنعة تماما بان لك غرضا خبيثا في تشجيعها على ذلك .

ـ بل إن غرضي شريف على قدر المستطاع ، وساخبرك بكل تفاصيله في صراحة .. فانا اريد ان تتوثق الصلة بين ابن العمة وبنت الخال ، وان يتحابا ثم يربط الزواج بينهما .. وإني في ذلك اسدي يدا كريمة إلى سيدك نفسه .. فإن ابنته الصغيرة لا امل لها ولا مستقبل في وراثته ، فإذا عملت بما يطابق رغباتي فإن ذلك يكسبها الحق في مشاركة لينتون ميراث خاله .

ـ إذا مات لينتون ـ وهو امر قريب الاحتمال لان حياته غير مضمونة ـ فإن كاترين ستكون الوارثة .

ـ كلا .. إنها لن تكون الوارثة .. فليس في الوصية نص يضمن لها ذلك .. وإنما سوف تنتقل املاكه إلي .. ولكي نضع حدا لهذا الجدل العقيم ، اقول لك إنني اريد ان يتزوجا وقد استقر عزمي على تنفيذ إرادتي ..

فقلت له حانقة :

ـ اما انا فقد استقر عزمي على الا تقرب كاثي منزلك معي مرة اخرى ..

فامرني بان الزم الصمت ، إذ كنا قد وصلنا إلى البوابة حيث وقفت مس كاثي في انتظارنا .. ثم سبقنا في الممر ليفتح لنا باب المنزل .. وكانت سيدتي الصغيرة لا تفتا ترمقه بالنظرة تلو النظرة ، كانها لا تستطيع ان تستقر على راي قاطع في حقيقة امره .. وكان كلما التقت عيناه بعينيها ،

ابتسم فى وجهها ، وكلما تحدث إليها رقق من صوته فى خطابها .. وقد بلغت بى البلاهة ان تصورت ان ذكرى امها قد تلين قلبه وتحول دون رغبته فى إيذائها ..

وكان لينتون يقف بجوار المدفأة ، وقد عاد من نزهته بين الحقول ، إذ كان لا يزال مرتديا قبعته وكان يطلب إلى جوزيف ان ياتيه بحذاء جاف .. وكان قد ازداد طولا بالنسبة لسنه فما زالت تنقصه بضعة اشهر ليبلغ السادسة عشرة .. اما ملامحه فقد احتفظت بجمالها ، وازدادت عيناه تألقا ، وبشرته توردا عما اذكره عنها .. ولو انه كان تألقا وقتيا اكتسبه من الهواء العليل والشمس الساطعة ..

وتحول مستر هيثكليف نحو كاثى ، سائلا :

ــ من هذا ؟ .. هل تعرفينه ؟ ..

فراحت تنقل انظارها بين الواحد والآخر فى تشكك ، قبل ان تجيب :

ــ اهو ابنك ؟ ..

ــ نعم .. نعم ولكن هل هذه اول مرة ترينه فيها ؟ .. تذكرى قليلا .. آه !.. إن ذاكرتك ضعيفة خائرة .. وانت ، الا تذكر ابنة خالك التى اعتدت ان « تهوسنا » برغبتك فى رؤيتها يا لينتون ؟ ..

فما ان سمعت الاسم حتى اضطربت بالفرحة الطاغية والدهشة البالغة وصاحت قائلة :

ــ ماذا ؟ .. لينتون ؟ .. اهذا لينتون الصغير ؟ .. ولكنه يفوقنى طولا الآن ! .. هل انت لينتون حقا ؟ ..

فتقدم الفتى نحوها مؤكدا انه بعينه .. فراحت تقبله فى حرارة بينما كانا يتبادلان نظرات العجب مما احدثه الزمن من تغيير فى مظهر كل منهما .. كانت كاثرين قد بلغت غاية طولها ، وغدت ملفوفة العود فى غير بدانة ، رخصة البدن فى قوة فولاذية ، تشع بالصحة والحيوية الدافقة .. اما لينتون فكانت نظراته وحركاته واهنة ضعيفة ، وجسمه مفرط النحول ، ولكن كان فى مسلكه ومظهره رشاقة تلطف من هذه العيوب ، وتجعله يبدو مقبولا .

وبعد ان فرغت من تبادل آيات الود العديدة مع ابن عمتها ، مضت نحو مستر هيثكليف الذى كان يقف بجانب الباب ، مقسما انتباهه بين داخل البيت وخارجه ، متظاهرا بالنظر إلى الخارج وهو فى الحقيقة يرقب من فى الداخل فحسب .. فنهضت على اطراف اصابعها لتقبله وهى تهتف قائلة :

ــ انك زوج عمتى إذن ؟ .. والله لقد احببتك ، برغم عبوسك وتقطيبك فى بادىء الامر ! .. ولكن لماذا لا تحضر لزيارة « الجرانج » مع لينتون ؟ .. اليس من العجيب أن نكون جيرانا متلاصقين كل هذه السنين ثم لا تزورنا قط ؟ .. لماذا بالله فعلت ذلك ؟ ..

فأجاب :

ــ لقد زرت « الجرانج » مرة او مرتين ، اكثر مما ينبغى ، قبل مولدك .. ولكن رويدك .. يا للعنة ! .. إذا كان لديك الكثير من القبلات ، فوفريها وامنحيها للينتون .. فإنك تضيعينها عبثا فوق وجهى !

وتركته كاثرين ، وطارت إلى لتهاجمنى بقبلاتها المسرفة وهى تصيح :

ـ وانت يا ايلين .. ايتها الخبيثة الشريرة ! .. كم جاهدت فى منعى من الدخول ! .. ولكنى سوف أسير إلى هنا كل صباح فى المستقبل .. هل تسمح لى بذلك يا عماه ؟ .. وهل احضر ابى معى احيانا ؟ .. هلا يسرك ان ترانا ؟ ..

فأجاب « العم » وهو لا يكاد يستطيع إخفاء القطوب الذى علا وجهه ، والناتج من نفوره من كلا الزائرين :

ـ آه .. طبعا .. طبعا ..

وما لبث أن واجه السيدة الشابة ، مستطردا :

ـ ولكن مهلا .. لقد فكرت فى الأمر ، ووجدت من الخير ان اخبرك بالحقيقة .. فإن مستر لينتون ناقم على ، إذ تشاجرنا مرة فى حياتنا ، فى ضراوة وقسوة .. ولو ذكرت له شيئا من قدومك إلى هنا فسوف يعترض بشدة على زياراتك لنا .. ولذلك أرى أنه لا يجب ان تخبريه بهذه الزيارة ، إلا إذا كنت قليلة الحرص على رؤية ابن عمتك فى المستقبل .. إن لك ان تحضرى كلما شئت ، ولكن لا تذكرى له ذلك ..

فسألته فى استخذاء : ولماذا تشاجرتما ؟ ..

ـ كان يرى أننى من الفقر بحيث لا أصلح زوجا كفؤا لأخته .. ثم حزن لفوزى بها ، واعتبر ذلك إهانة لكبريائه ، لا يمكن ان يغفرها لى البتة ..

فقالت الفتاة :

ـ هذا خطأ منه ، وسوف أخبره بذلك يوما من الأيام .. ولكنى ولينتون لا شأن لنا ولا دخل بمنازعاتكما .. وما دمت لن أحضر إلى هنا ثانية ، فعليه ان يأتى إلى « الجرانج » ..

فغمغم ابن عمتها :

ـ ان المسافة بعيدة لا أستطيع سيرها .. وسوف يقتلنى المشى أربعة أميال حتما .. كلا .. كلا .. تعالى انت إلى هنا يا مس كاثرين ، بين آن وآخر .. لا كل صباح كما قلت ، بل مرة او اثنتين كل اسبوع !

فصوب هيثكليف نحو ابنه نظرة تفيض بالمرارة والازدراء ، وهمس يقول لى :

ـ اغلب ظنى ، يا ايلين ، ان جهودى سوف تذهب هباء .. فإن « مس كاثرين » ، كما يدعوها هذا الغلام التافه ، سوف تفطن سريعا إلى حقيقة قيمته ، فتطرحه وراء ظهرها ، أو تبعث به إلى الشيطان ! .. آه لو كان هيرتون محله ! .. اتعلمين اننى كثيرا ما اشتهيت لو كان هيرتون ابنى برغم ما هو فيه من ضعة الآن .. لقد كنت خليقا بأن احب الفتى لو لم يكن ابن هندلى ! .. ولكنى أحسبه بمنجاة من حبها ! .. وسوف أدفع به لمنافسة هذا المخلوق الحقير ، إلا إذا نفض هذا عن نفسه خموله .. والواقع اننا لا نقدر أنه سوف يعيش حتى يبلغ الثامنة عشرة .. آه .. لعنة الله على هذا المخلوق التافه الهزيل !.. إنه منهمك فى تجفيف قدميه ، ولا يلقى إليها بالا او اهتماما ! .. لينتون !

فأجاب الصبى : نعم يا أبتاه ..

ـ أليس لديك ما تصحب ابنة خالك لرؤيته خارج الدار ؟ .. ولو بعض الأرانب أو أعشاش ابن عرس ؟ ! .. خذها يا بنى إلى الحديقة ، قبل أن تستبدل حذاءك ، واصحبها إلى الاسطبل لتريها جوادك ..

فتمتم لينتون مخاطبا كاثى فى نبرات تنم عن نفوره من التحرك من مكانه :

ـ ألا تفضلين الجلوس هنا ؟ ..

تطلعت الفتاة نحو الباب فى نظرات متشوقة ، وبدا عليها التلهف إلى الحركة والنشاط ، ثم أجابت فى استحياء :

ـ لست أدرى حقا !

وظل قابعا فى مقعده لا يفارقه ، بل لقد ازداد انكماشا والتصاقا بالمدفأة .. وعندئذ نهض هيثكليف ومضى إلى المطبخ فاجتازه إلى الفناء ، وسمعناه ينادى هيرتون ، وسمعنا هيرتون يلبى النداء ، وما لبث الاثنان أن دخلا إلى الحجرة .. وكان الشاب يغتسل كما بدا فى توهج وجنتيه وشعره الندى ..

فلما رأته مس كاثى فكرت ما سمعته من مدبرة المنزل ذات يوم ، فصاحت قائلة :

ـ آه ! .. دعنى أوجه إليك سؤالا يا عماه .. أهذا ابن خالى حقا ؟ ..

ـ نعم .. إنه ابن خالك .. أفلا تحبينه ؟ ..

فبدت الحيرة فى أسارير كاثرين ، فاستطرد قائلا :

ـ ألا تجدينه شابا لطيفا ؟ ..

فوقفت الفتاة الشقية على أطراف أصابعها وهمست فى أذن هيثكليف بكلمات انطلق على أثرها مقهقها .. فاربد وجه هيرتون وبان عليه الحرج ، فأدركت أنه شديد الحساسية لكل ما ينم عن الاستهانة بأمره ، وأن لديه فكرة مبهمة عن ضآلة شأنه بالنسبة لهم .. ولكن سيده ، أو حاميه ، بدد عبوسه بأن قال موضحا :

ـ سوف تكون المفضل لديها بيننا يا هيرتون ، فهى تقول إنك .. ترى ماذا قالت ؟ .. حسنا .. إنه شىء شديد الاطراء لك .. فاذهب معها ، وطف بها أنحاء المزرعة ، واسلك سبيل السيد المهذب ، فلا تنطق أمامها بكلمات غير لائقة ، ولا تحملق فى وجه الآنسة عندما تكون غير منتبهة إليك ، واغضض من بصرك عندما تنظر إليك .. وإذا تحدثت إليها فانطق بكلماتك فى بطء ووضوح ، ولا تضع يديك فى جيوبك .. هيا .. اذهب معها الآن ، وكن معها مضيفا رقيقا على قدر ما تستطيع من لطف ورقة !

ثم أخذ يرقبهما وهما يمران أمام النافذة ، فإذا هيرتون إيرنشو قد أشاح بوجهه تماما عن رفيقته ، وقد بدا كأنما يدرس المناظر الممتدة أمامه ، والمألوفة لديه ، فى اهتمام شخص غريب يراها للمرة الأولى ، أو استغراق فنان يرى فيها ما يشوقه ..

وراحت كاثرين ترمقه من طرف خفى ، فى نظرات تنم عن الإعجاب به إلى حـــد ما ، ثم ما لبثت أن انصرفت عنـــه إلى البحث عن الأشياء التى تثير فضولها وتسليتها ، وهى تتواثب من مكان لآخر ، وتترنم ببعض الألحان تعويضا لها عما يعوزها من حديث بسبب صمت رفيقها ..

ومضى هيثكليف يقول لى :

ــ لقد ربطت لسانه ، فلا يجرؤ على النطق بكلمة واحـــدة .. هل تذكرينني يا نللى عندما كنت فى مثل ســـنه .. لا ، بل أصغر منه ببضع سنين ؟ .. وهل ظهرت قط بمثل هـــذا الغباء ، أو هذا « التنطع » كما يسميه جوزيف ؟ ..

ــ بل أسوأ منه .. لأنك كنت أكثر تجهما وعبوسا !

فتابع كلامه ، كأنما يحدث نفسه ، أو ينطق بما يجـــول بخاطره :

ــ إننى أجد فيه ما يسرنى ويشـــفى غليلى ، ويرضى كل ما علقته عليه من آمال ! .. ولو أنه ولد أبله أو معتوها لـــا شعرت بنصف ما أستمتع به الآن من سرور ورضى .. ولكنه ليس معتوهـــا .. وفى وســـعى أن أرثى لكل ما يخالجه من مشاعر وأحاسيس ، لأننى أنا نفسى عانيتها يوما من الأيام .. وإنى أعلم كل ما يكابده الآن تماما .. ولكنها ، مع ذلك ، مجرد بداية لـــا سوف يكابده ويعانيه فيما بعد .. ولن يكون فى قدرته قط أن ينتشـــل نفسه من أعماق الجهالة والجلافة التى تردى فيها .. فقد استطعت أن أظفر به بأسرع ممـــا



وراحت كاثرين ترمقــه من طــرف خفى ، فى نظــرات تنم عن الاعجاب به الى حد ما ، ثم ما لبثت أن انصرفت عنه ..

ظفر بي والده الوغد ، وأن ارمى به إلى احط مما رمانى .. فإنه يتيه فخرا بجلافته وفظاظته .. وقد علمته كيف يسخر ويزدرى كل ما ليس حيوانيا ، وأن يعده سخفا وضعفا .. افلا تظنين أن هندلى كان يمكن أن يفخر كثيرا بابنه ، لو أتيح له أن يراه الآن ؟ .. الا يفخر بابنه مثلما افخر انا بابنى هـذا ؟ .. ولكن هناك فرقا شاسعا بينهما .. فأحدهما ذهب خالص ولكنه يستخدم كبعض حجارة الطريق .. والثانى صفيح رخيص ولكنه يصقل ليحاكى آنية من الفضة ! .. أن ابنى خلو من أى شيء ذى قيمة ، ومع ذلك فإننى استحق الثناء إذ اجعله يمضى إلى أبعد ما يمكن لشيء تافه مثله أن يبلغه .. أما ابنه هو فإن له ميزات وصفات من الطراز الأول ، ولكنها ضائعة .. وقد قبرت وطمرت فى التراب حتى غدت اسوأ من عدمها .. فأنا ليس لدى ما آسف عليه .. أما هو فإنه خليق بأن يكون اشد اسفا واسى من أى إنسان عرفته .. واحسن ما فى الأمر أن هيرتون مولع بى ولعا شديدا .. ولعلك تعترفين باننى فى ذلك قد بززت هندلى وتفوقت عليه .. فلو أن الوغد الميت استطاع أن يقوم من قبره ويأتى ليناقشنى الحساب على ما فعلته بولده ، لأثلج صدرى برؤية ذلك الولد نفسه يهاجمه حتى يرده إلى قبره ، وقد أحنقه انه جرؤ على الاعتداء على الصديق الأوحد الذى له فى هذه الدنيا !

واطلق هيثكليف ضحكة شيطانية إعجابا بهذه الفكرة ! .. ولم احر جوابا ، لأننى رأيت أنه لم يكن ينتظر الجواب .. وفى الوقت نفسه كان رفيقنا الصغير ـ الذى كان يجلس بعيدا عنا بحيث لم يسمع ما قاله أبوه ـ قد بدأ يتململ فى مقعده ويظهر علامات القلق .. ولعل ذلك كان ندما منه إذ حرم نفسه من متعة اصطحاب كاترين خشية أن يناله بعض التعب .. ولاحظ أبوه نظراته القلقة الهائمة من خلال النافذة ، ويده المترددة وهى تمتد نحو قبعته وترتد عنها ، فصاح به فى حرارة مصطنعة :

ـ قم أيها الولد الكسول ، والحق بهما .. إنهما الآن عند ركن المنزل ، بجوار خلايا النحل !

فاستجمع لينتون همته الخائرة ، وغادر مكانه بجوار المدفأة .. وكان الباب مفتوحا ، وفيما كان يجتازه إلى الخارج سمعت صوت كاترين تسأل رفيقها المستوحش عن تلك الكتابة المنقوشة فوق الباب .. فراح هيرتون يحملق بأنظاره إلى النقوش ، وهو يحك رأسه فى بلاهة تفوق بلاهة مهرجى الملاعب .. وما لبث أن أجاب :

ـ إنها كتابة لعينة ، ولا أستطيع قراءتها !

فصاحت كاترين :

— لا تستطيع ان تقراها ؟.. إنني اقرؤها بسهولة ، فإنها كتابة إنجليزية .. ولكني اريد ان اعرف سبب وجودها فوق الباب .

وعندئذ قهقه لينتون طربا ، وكان ذلك أول مظهر يبديه من مظاهر السرور والانشراح ، ثم قال لابنة خاله :

— إنه لا يعرف الحروف الابجدية !.. فهل يمكنك ان تصدقي وجود مثل هذا الجهل الفاحش ؟ ..

فسألته مس كاثي في جد واهتمام :

— هل هو شخص طبيعي مكتمل العقل كما ينبغي ان يكون ؟ .. أم انه غر ساذج به شذوذ ؟ .. لقد القيت عليه سؤالين منذ قليل فكان يبدو في كل مرة من الغباء بحيث حسبته لا يفهمني .. اما انا فاني لا استطيع فهمه حقا !

فانبعث لينتون يضحك من جديد ، وهو يرمق هيرتون بنظرات الشماتة والتشفي ، وكان من المؤكد أن الفتى في تلك اللحظة لم يكن يبدو مجردا من ملكة الفهم ..

ومضى لينتون يقول :

— ليس به من شيء سوى البلادة والكسل ، اليس كذلك يا ايرنشو ؟ .. ان ابنة الخال تحسبك ابله او غبيا ، وهكذا

تلقى عواقب سخريتك بما تسميه : « تعليم الكتب » .. ثم هل لاحظت يا كثرين طريقة نطقه المروعة ، على غرار العوام من اهل يوركشاير ؟ ..

فزمجر هيرتون قائلا ، وهو اسرع بديهة في إجابة رفيقه الدائم :

— وما الفائدة منها بحق الشيطان ؟ ..

وكان يهم بالمضي في زمجرته شأوا بعيدا ، لولا ان الشابين اصابتهما نوبة من المرح الصاخب ، فانفجرا في قهقهة متواصلة ، وقد طربت آنستي الطائشة إذ تبينت انها تستطيع أن تجعل من لهجته الغريبة الريفية موضعا للمرح والتسلية .

وقال لينتون وهو يضحك ضحكة ناعمة خبيثة :

— وما فائدة « الشيطان » في هذه العبارة ؟ .. لقد امرك ابي بالا تفوه باية كلمات غير لائقة ، وها انت لا تستطيع ان تفتح فمك دون أن تلوك واحدة منها ! .. هيا .. حاول ان تسلك مسلك السادة المهذبين ..

فصاح الشاب الريفي حانقا :

— لو لم تكن اقرب إلى الفتاة منك إلى الفتى لقضيت عليك في التو واللحظة ، أيها المخلوق التافه الهزيل !

ثم أسرع بالابتعاد عنها وقد اشتعل وجهه بنيران الغضب والمذلة معا ، فقد كان يشعر بعمق الإهانة التى أصـــابته ، وبعجزه عن الأخذ بثأره ..

وكان مستر هيثكليف قد سمع هذا الحوار ، كما سمعته ، فابتسم مغتبطا إذ رآه ينصرف عنها ، ولكنه أعقب ذلك بنظرة غريبة تفيض بالنفور والكراهية ، حدج بها ابنه ورفيقته الثرثارين ، اللذين مضيا فى حديثهما عنـــد مدخل البيت ، وقد وجد الفتى ما ينعشه ويثير حيويته فى الحديث عن أخطاء هيرتون ونقائصه ، ورواية الأقاصيص عن تصرفاته ، كما استطابت الفتاة أقواله البذيئة الحقود دون أن تنتبه إلى ما تنم عليه من سوء الطوية .. وعندئذ بدأت أكره لينتون ، أكثر مما كنت أرثى له ، وعذرت أباه فى احتقاره واســـتصغار شأنه ..

ومكثنا هناك حتى العصر ، إذ لم يمكنى أن أنتزع مس كاثى قبل ذلك .. ولكن من حسن الحظ أن سيدى لم يكن قد غادر حجرته ، فظل جاهلا غيبتنا الطويلة .. وكنت أتلهف على اطلاع الآنسة الشابة على حقيقة أخلاق النـــاس الذين غادرنا بيتهم ، ولكنها كانت قد وضعت فى رأسها أننى متحاملة عليهم ، فصاحت قائلة :

ـ آه ! .. إنك تتحازين إلى جانب أبى يا أيلين .. ولقد

تبينت الآن مقدار تحيزك ، وإلا لما خدعتنى كل هذه السنين بزعمك لى أن لينتون يقيم فى مكان بعيد جدا .. إننى شـــديدة الغضب منك حقا ، غير أن سرورى اليوم يطغى على غضبى فيحول دون انفجاره ! .. ولكن عليك أن تمسكى لسانك عن زوج عمتى ! .. إنه عمى ! .. فاذكرى ذلك جيدا وحذار أن تشتميه ! .. أما أبى فسوف أعاتبه على شجاره معه !

وانطلقت فى الحديث على هذه النغمة حتى اضطررت إلى التخلى عن كل محاولة لإقناعها بخطئها .. ولم تذكر شــيئا عن الزيارة فى تلك الليلة ، لا لشىء إلا لأنهـــا لم تر مســـتر لينتون .. ولكن فى اليوم التالى انفضح السر كله ، لفـــرط كربى وغمى !

ومع ذلك فرب ضارة نافعة ! .. فلم يكن الأمر من السوء كما تصورت .. إذ فكرت فى أن مستر لينتون أقدر منى على حمل مسئولية التوجيه والتحذير ، وأقوى منى تأثيرا عليها .. غير أنه كان كثير التردد والتهيب فى إقناعهـــا بالأسباب القوية التى تبرر رغبته فى قطع كل صلة لها بأهل « مرتفعات ويذرنج » ، كما كانت كاثرين لا تقنعها سوى المبررات القوية لكل قيد يفرض على حريتها أو يحد من رغباتها المدللة !

فما كادت تحييه تحية الصباح ، فى اليوم التالى ، حتى هتفت قائلة :

ـ هل بوسعك ، يا أبتاه ، أن تحدس من رأيت بالأمس فى نزهتى بين الأحراش ؟ . . آه ! . . أراك جفلت يا أبى ! . . وقد خانك الحذر الآن ، أليس كذلك ؟ . . حسنا ، لقد رأيت . . ولكن اصغ إلى وسوف تسمع منى كيف كشفت أمرك ، وأمر إيلين ـ حليفتك ـ التى كانت ، مع ذلك ، تتظاهر بالاشفاق على ، عندما كنت أعلل النفس بالأمل ويستبد بى القلق نحو عودة لينتون إلينا ثانية !

ثم مضت تروى القصة الأمينة الكاملة لرحلتها وما انتهت إليه . . أما السيد ، فعلى الرغم من أنه كان يرمقنى بنظرات التأنيب أكثر من مرة ، إلا أنه لم يقل شيئا حتى فرغت من قصتها ، وعندئذ جذبها إليه وسألها إن كانت تعرف لماذا أخفى عنها وجود لينتون فى جوارنا القريب ؟.. وإن كانت تظن ذلك لمجرد أنه يأبى عليها متعة بريئة لا ضرر ولا حرج من استمتاعها بها ؟ . . فأجابته :

ـ لقد كان ذلك لأنك تكره مستر هيثكليف . .

ـ إذن فأنت تعتقدين أننى من الأنانية بحيث أهتم بمشاعرى أكثر من اهتمامى بمشاعرك يا كاثى ؟ . . كلا . . لم يكن ذلك لأننى أكره مستر هيثكليف . . بل لأن مستر هيثكليف هو الذى يكرهنى ، ولأنه أقرب الناس إلى الأبالسة والشياطين ، يجد لذته فى الإساءة إلى من يبغضهم وتدميرهم

تدميرا عند أول فرصة يتيحونها له . . وكنت أعرف أنه ما من سبيل أمامك إلى توثيق عرى الود مع ابن عمتك دون أن تتصلى به وتلتقيه . . وكنت أعرف كذلك أنه سوف يبغضك لأنك ابنتى . . وهكذا اتخذت وسائل الحيطة حتى لا ترى لينتون ثانية ، لمصلحتك أنت ، لا لأى سبب آخر . . وكان فى نيتى أن أشرح الأمر كله يوما من الأيام عندما تكبرين ، ويؤسفنى أننى توانيت فى ذلك . .

فقالت كاثرين ، وهى لا تبدو مقتنعة تماما :

ـ ولكن مستر هيثكليف كان ودودا فى ترحيبه بى يا أبتاه ! . . ولم يبد أى اعتراض على لقاء أحدنا بالآخر أو رؤيته له . . بل قال إن بوسعى الحضور إلى منزله كلما طاب لى ، على ألا أخبرك بذلك ، لأنك كنت قد تشاجرت معه ، ولن تغفر له زواجه من عمتى ايزابيلا . . أما أنت فلا تسمح لى بذلك . . فأنت وحدك الملوم الآن يا أبى ! . . إنه ، على الأقل ، راض عن توطيد صداقتنا ، أنا ولينتون . . أما أنت فتقف فى سبيلها !

وإذ رأى السيد أنها لا تريد أن تصدق ما يتصف به زوج عمتها من خلق شرير ، راح يروى لها فى إيجاز مسلكه مع ايزابيلا ، ووسائل الغدر التى تملك بها « مرتفعات ويذرنج » ! ولم يكن يطيق المضى فى هذا الحديث طويلا ، لأنه على الرغم

من قلة ما ذكره عنه ، إلا انه كان يحس نحو عدوه القديم بذلك الروع نفسه وتلك البغضاء ذاتها اللذين كانا يملآن قلبه منذ وفاة مستر لينتون .. كان لا يفتا يردد فى فكره تلك العبارة المريرة : « كان يمكن ان تظل على قيد الحياة حتى الآن ، لولا ما فعله بها » فكان هيثكليف يبدو فى عينيه قاتلا سفاكا .. ولكن مس كاثى ــ التى لم تعرف من انواع الشرور سوى افاعيلها الصغيرة التافهة ، من العصيان او العسف او الانفعال، الناجمة عن طبعها الحامى ، وطيشها الصبيانى ، والتى كانت تندم عليها يوم حدوثها ــ ذهلت واستبدت بها الدهشة من هذا « القلب الاسود » الذى يستطيع ان يجتر الحقد والضغينة ، وينطوى على نية الانتقام كل هذه السنين ، ويتابع تدبير الخطط فى صبر وعزم دون ان يلم به شبح من تانيب الضمير ! .. وبدت من التأثر والضيق بهذا المظهر الجديد من مظاهر الطبيعة البشرية ــ وهو شيء لم يسبق لها ان قرات عنه فى دراساتها ، او خطر ببالها حتى الآن ــ بحيث فضل مستر ادجار ان يكف عن متابعة الكلام فى هذا الموضوع ، فاكتفى بأن ينهى الحديث بقوله :

ــ سوف تعرفين فيما بعد ، يا عزيزتى ، لماذا اود أن تتجنبى منزل هذا الرجل وعائلته .. اما الآن ، فعودى إلى مشاغلك وملاهيك السابقة ، ولا تفكرى فيهم بعد ذلك قط ..

فقبلت كاثرين اباها ، وعكفت على دروسها فى غدوه زهاء ساعتين كعادتها ، ثم صحبته فى جولة بين الحقول .. ومضى اليوم كله كما تمضى سائر الأيام .. غير اننى عندما اويت إلى حجرتها فى المساء ، ولحقت بها لاساعدها فى إبدال ثيابها ، وجدتها راكعة بجوار الفراش وقد انخرطت فى البكاء ..

فتعجبت من ذلك ، وهتفت بها قائلة :

ــ واها لك من طفلة بلهاء ! .. لو انك ذقت شيئا من الأحزان الحقيقية ، لخجلت من إراقة دمعة واحدة سدى لمثل هذه المعارضة التافهة لرغباتك ! .. فاحمدى الله ، يا مس كاثرين ، على ان حياتك خلو من اى حزن جوهرى ، او ظل لمثل هذا الحزن .. وفكرى لحظة لو ان السيد ، وانا ، قضينا نحبنا ، ووجدت نفسك وحيدة فى هذا العالم ، فكيف يكون شعورك عندئذ ؟ .. قارنى بين ظروفك الحالية ومثل هذا المصاب الجلل ، واحمدى الله على ما اولاك من اصدقاء يحبون لك الخير ويسهرون على سعادتك ، بدلا من إراقة عبراتك فى اشتهاء المزيد من الاصدقاء !

فأجابت :

ــ إننى لا ابكى من اجل نفسى يا ايلين ، وإنما من اجله هو

.. لقد كان يتوقع أن يرانى ثانية غدا ، ولكنه سوف يصاب بخيبة أمل شديدة .. وسوف يطول انتظاره عبثا ..

ـ هراء ! .. تهل تحسبينه يفكر فيك بمثل تفكيرك فيه ؟ .. أليس لديه رفيق هو هيرتون ؟ .. انك لا تجدين واحدا فى المائة من الناس يبكى فقد قريب له لم يره أكثر من مرتين فى أمسيتين متباعدتين ! .. وسوف يدرك لينتون حقيقة الأمر ولا يشغل نفسه بالتفكير فيك بعد ذلك ..

فاستوت قائمة ، وهى تقول :

ـ ولكن هل لى أن أكتب إليه رقعة صغيرة أبين له فيها السبب فى عدم حضورى ، وأرسل له معها هذه الكتب التى وعدته بإعارتها له ؟.. إن كتبه ليست فى مثل طرافة كتبى ، وكان يتلهف على الحصول عليها عندما حدثته عن جمالها وما فيها من بهجة وتسلية .. هل يمكننى أن أكتب إليه يا إيلين ؟ ..

فأجبتها فى حزم :

ـ محال أن يحدث ذلك .. ولن يحدث قط .. تكتبين إليه ، فيكتب إليك ، ثم لا يقف الأمر بعد ذلك عند حد ؟ .. كلا يا مس كاثرين .. أن هذه الصلة يجب أن تقطع نهائيا ، فهكذا يتوقع أبوك منك ، وسوف أعمل على تنفيذ مشيئته ..

فبدأت تلح من جديد ، وقد اكتست أساريرها بطابع التوسل والرجاء :

ـ ولكن يمكن لرسالة صغيرة واحدة أن ..

غير أنى قاطعتها فى صرامة :

ـ صه ! .. إننا لن نعود إلى الحديث عن رسائلك الصغيرة .. هيا إلى الفراش !

عندئذ رمقتنى بنظرة تقطر سما ، حتى لقد بلغ من أثرها فى نفسى أننى لم أقبل فى بادىء الأمر على تقبيلها كعادتى كل مساء ، واكتفيت بإحكام الغطاء فوقها ، ثم أغلقت عليها الباب وقد ركبنى هم عظيم .. ولكنى ترددت فى منتصف الطريق ، وندمت على مسلكى ، فعدت إليها فى هدوء .. ويا للمفاجأة ! .. كانت الآنسة تقف بجوار المنضدة وأمامها قطعة من الورق الأبيض ، وفى يدها قلم من الرصاص أسرعت بإخفائه عند دخولى ، وهى تشعر بذنبها .. وعندئذ بادرتها قائلة :

ـ انك لن تجدى من يحمل هذه الرسالة يا كاثرين ، لو استطعت كتابتها .. ولكنى الآن سوف أطفىء الشمعة وأدعك فى الظلام ..

وعندما مددت يدى بقصبة الإطفاء لأخمد ضوء الشمعة

المطلقة ، تلقيت لطمة شديدة على يدى ، وسمعتها تزمجر في سخط « أيتها الشريرة ! » .. ولكنى لم ألق إلى الأمر بالا ، وغادرت الحجرة في سكون .. وعندئذ أوصدت المزلاج في عنف شديد ، وقد تملكتها نوبة من نوبات النزق والمشاكسة المألوفة منها ..

ومع ذلك فقد أتمت رسالتها وبعثت بها إلى المرسل إليه مع غلام لبان كان يحضر من القرية إلى « الجرانج » .. ولكنى لم أعلم ذلك إلا بعد انقضاء بعض الوقت .. فقد مرت الأسابيع ، واستعادت كاثى مرحها وانشراحها ، وإن كانت قد غدت مولعة ، إلى حد عجيب بالتسلل إلى الأركان والانفراد بنفسها .. وكنت إذا اقتربت منها فجأة ، وهى مستغرقة في القراءة ، أجدها تجفل وتضم الكتاب إلى صدرها كأنما تحاول إخفاءه ، وغالبا ما كنت ألمح أطراف أوراق منفصلة تطل من بين صفحات الكتاب .. بل لقد اتخذت لنفسها عادة جديدة ، وهى التبكير في مغادرة حجرتها والنزول إلى المطبخ حيث تظل تحوم حوله كأنما تنتظر وصول شيء لا أدرى كنهه ..

وكان لها في إحدى خزائن المكتبة درج صغير تظل تعبث بمحتوياته ساعات طويلة وتحرص كل الحرص على أخذ مفتاحه معها كلما انصرفت عنه .. فحدث ذات يوم ، بينما كانت منهمكة في التنقيب في درجها ، أن حانت منى نظرة

إلى الدرج ، فإذا بلعبها التى كانت تملؤه قد اختفت وحلت محلها بضعة من الأوراق المطوية .. فثار فضولى ، بل وشكوكى ، وعولت على أن ألقى نظرة على كنوزها الخفية .. وهكذا ما كادت هى والسيد يأويان إلى حجرتيهما ذات ليلة ، حتى رحت أبحث بين مفاتيحى حتى وجدت منها واحدا يفتح قفل ذلك الدرج ، ففتحته وأفرغت محتوياته جميعا في ميدعتى ، ثم أخذتها إلى حجرتى لأفحصها على مهل ، وفي مأمن من المفاجأة .. ومع أننى كنت أرتاب في الأمر إلى حد ما ، فقد كانت دهشتى بالغة إذ تبينت في تلك القصاصات مجموعة من الرسائل — لابد أنها كانت يومية تقريبا — من لينتون هيثكليف ، كان معظمها ردودا على رسائل بعثت بها إليه .. وكانت الرسائل الأولى مقتضبة يبدو فيها التعثر ، ولكنها ما لبثت أن تحولت تدريجيا إلى رسائل غرام غزيرة العاطفة ، مليئة بالسذاجة التى تبررها سن كاتبها ، وإن كان بعضها ، مع ذلك ، يحوى لمسات رائعة أيقنت أنه استعارها من مصدر أوفر خبرة وحذقا ! .. وراعنى أن ألفيت بعضها خليطا بالغ الغرابة من الحرارة والصراحة ، يبدأ بالمشاعر القوية وينتهى بالعاطفة المشبوبة ، في ذلك النوع من الكلمات التى قد يستخدمها طالب حدث في مناجاة حبيبة روحانية من حوريات السماء ! .. ولست أدرى إن كانت هذه الرسائل قد أشبعت كاثى وأرضت مشاعرها ،

ولكنها كانت في نظري من سقط المتاع ! .. وبعد أن قلبت فيها حتى اكتفيت ، جمعتها في منديل أخفيته عندي ، ثم عدت فأوصدت الدرج على خواء ..

ونزلت سيدتي الصغيرة مبكرة ، على عادتها ، وأخذت تحوم حول المطبخ ، فرحت أرقبها من طرف خفي حتى رأيتها تذهب إلى الباب ، في اللحظة التي تقدم فيها غلام صغير معين .. وبينما كانت الخادمة تملأ له قدر اللبن ، رأيت كاثي تدس شيئا في جيب سترته ، وتلتقط شيئا آخر من الجيب نفسه ، في حركة سريعة خفية .. فتسللت ودرت حول المنزل إلى الحديقة ، وتربصت للرسول ، الذي راح يدافع في نضال المستميت عن وديعته ، حتى انسكب اللبن على الأرض أثناء صراعه معي ، ولكني أفلحت أخيرا في انتزاع الرسالة منه ، وأنذرته بسوء العاقبة إذا لم يمض إلى منزله قدما لا يلوي على شيء .. ثم انزويت بجوار الجدار ورحت أقرأ رسالة مس كاثي الغرامية في إمعان ، فوجدتها أشد بساطة وأعظم بلاغة من رسائل ابن عمتها .. كانت رسالة رائعة ، والحق يقال ، على رغم الحماقة التي كانت تنضح بها .. فهززت رأسي وكررت عائدة إلى المنزل أقلب وجوه الرأي في هذا الأمر ..

وكان اليوم مطيرا ، فلم تستطع كاثي القيام بنزهتها المعتادة

في البستان .. وهكذا ما كادت تفرغ من دروس الصباح ، حتى لجأت إلى الدرج المعهود تنشد فيه تسليتها .. وكان أبوها جالسا إلى جوار المائدة منهمكا في القراءة ، أما أنا فقد تعمدت الاشتغال برتق أهداب ستائر النافذة ، ورحت أرقب حركاتها بعين لا تغفل ..

وما من طائر عاد إلى عشه ليجده خاويا وقد عاثت فيه يد عدو أثيم ، بعد أن كان قد تركه مليئا بأفراخ صغار تشيع فيه البهجة بزقزقتها الصداحة ، بمستطيع أن يعبر عن اليأس القاتل والحزن المرير ، في صرخاته وخفقات أجنحته ، بأكثر مما فعلت كاثي بتلك الشهقة الواحدة التي انطلقت من صدرها ، وذلك التحول الفجائي الذي اعترى أساريرها السعيدة فبدلها تبديلا هائلا مروعا ..

فرفع مستر لينتون رأسه وهتف بها قائلا :

ـ ماذا حدث يا حبيبتي ؟ .. هل جرحت نفسك ؟ ..

فتحققت من لهجته ونظرته أنه لم يكن مكتشف ذخيرتها ، فقالت لاهثة :

ـ كلا يا أبي .. لا شيء .. إيلين ! .. إيلين ! .. تعالي معي إلى الطابق العلوي فإني مريضة !

فلبيت دعوتها وصحبتها إلى خارج المكتبة ، فما كدنا نبلغ البهو العلوى وتوصد الباب خلفنا حتى هوت على ركبتيها ، وهتفت قائلة :

ـ أواه يا أيلين ! .. أنت التى أخذتها !.. آه .. رديها إلى ، ولن أفعل ذلك مرة أخرى .. لن أفعل ذلك أبدا .. ولكن لا تخبرى أبى .. أنك لم تخبرى أبى يا أيلين ؟ .. قولى أنك لم تخبريه بالأمر ؟ .. لقد كنت مفرطة فى الحماقة، ولكنى لن أفعل ذلك بعد الآن قط !

فخاطبتها فى رصانة وحزم وطلبت إليها أن تنهض قائمة ، ثم قلت :

ـ إذن فقد مضيت فى هذا الأمر شأوا بعيدا فى الخفاء ، كما يبدو الآن يا مس كاثرين ! .. لقد كان الأجدر بك أن تخجلى منها ، فلا تطلبيها ثانية ! .. فيالها من حزمة لطيفة من التفاهات تلك التى تقضين ساعات فراغك فى دراستها وحفظها ! .. ولماذا ؟ .. إنها خليقة بأن تطبع وتنشر ! .. وماذا تحسبين السيد يرى فيها عندما أنثرها تحت ناظريه ؟ .. إننى لم أطلعه عليها بعد ، ولكنى لا أخالك تظنين لحظة أننى سوف أحفظ أسرارك المضحكة هذه ! .. يا للعار ! .. لابد أنك أنت التى خطوت الخطوة الأولى فى تبادل هذه

السخافات ، فإنى موقنة من أن الفتى ليس خليقا بالتفكير فى مبادأتك بها !

فراحت تنشج بالبكاء وقد انسحق قلبها ، وهى تقول :

ـ إننى لم أفعل .. لم أفعل شيئا من ذلك .. ولم أفكر يوما واحدا فى حبه قبل أن ..

فقاطعتها صائحة بكل ما وسعنى من الاستنكار والازدراء :

ـ حبه ؟ .. ما شاء الله ! .. أتقولين « حبه » ؟ .. وهل سمع أحد بشيء كهذا ؟.. أن فى وسعى أن أجاريك فأتحدث عن حب الطحان الذى يحضر مرة كل عام ليشترى منا الغلال! .. ما أجمله من حب ، حقا ! .. أنك لم تقضى من حياتك فى المرتين اللتين رأيت فيهما لينتون أكثر من أربع ساعات ! .. فكيف تتكلمين عن الحب إذن ؟ .. هذه هى تفاهاتك الصبيانية ، وسوف أذهب بها إلى المكتبة ، وسأرى ما الذى يقوله أبوك عن مثل هذا الحب !

فوثبت على يدى لتنتزع منى كنزها الثمين ، ولكنى رفعته إلى ما فوق رأسى ، وعندئذ بدأت فى فيض من التوسلات التى انطلقت من فمها فى حرارة ولهفة ، راجية منى أن أحرق الرسائل أو أفعل بها أى شيء إلا أن أطلع أباها عليها .. وإذ كنت فى الحقيقة أميل إلى زجرها وتعنيفها بمثل ميلى إلى الضحك منها (لأننى كنت أقدر أن الأمر كله لا يعدو نزق الفتيات الصغار وغرورهن) فقد تظاهرت بالتفكير فى الأمر برهة ، ثم سألتها قائلة :

— إذا رضيت بحرقها ، فهل تعديننى وعدا صادقا بألا تبعثى إليه أو تتلقى منه رسائل أو كتبا — لأننى أرى أنك قد أرسلت إليه بعض الكتب — أو خصلات شعر أو خواتم أو لعبا ؟ ..

فصاحت كاثرين وقد طغت الكبرياء على خجلها :

— إننا لا نتبادل اللعب !

— أو أى شىء آخر يا سيدتى العزيزة إذن .. وسوف أذهب إلى أبيك الآن ما لم تبذلى لى هذا الوعد توا ..

فهتفت قائلة وهى تتشبث بثوبى :

— إننى أعدك يا إيلين .. فهيا ضعيها فى النار .. هيا .. هيا ..

ولكنى عندما شرعت فى افساح مكان بين قطع الفحم بمحراك النار ، كانت التضحية أكثر من أن تطيق الفتاة احتمال آلامها ، فراحت تتوسل إلى بأن أبقى على واحدة أو اثنتين من الرسائل ، قائلة وقد تمزق قلبها :

— واحدة أو اثنتين فقط يا إيلين ، من أجل خاطر لينتون !

ولكنى مضيت فى مهمتى الأليمة ، ففتحت ركن المنديل وبدأت أسقط الرسائل فى النار واحدة بعد الأخرى ، وألسنة اللهب تعلو فى المدفأة أقواسا ..

فصرخت كاثرين ودفعت يدها وسط النيران فأخرجت بعض الأوراق التى لم تجهز النار عليها واحترقت أطرافها فحسب ، غير مبالية بما يصيب أصابعها من تحريق ، وهى تصيح بى :

— سوف أحتفظ بواحدة أيتها القاسية الشريرة !

فأعدت الرسائل الباقية فى يدى إلى المنديل ، وهممت بأن أخطو نحو الباب قائلة :

— حسنا جدا .. ما زال لدى ما أريه لأبيك ..

عندئذ أفرغت فى الموقد ما كانت تطوى عليه يدها من أوراق مسودة الأطراف ، وراحت تستحثنى على إنهاء هذه المذبحة سريعا .. فلما فرغت من هذه المهمة جعلت أحرك الرماد لأجهز عليه .. ثم غطيته بملء مجرفة من كتل الفحم .. أما هى فقد انسحبت إلى حجرتها الخاصة وقد أطبقت شفتيها دون أن تنبس بكلمة واحدة ، وبدا عليها الشعور بما نالها من إهانة فادحة ..

ونزلت لأخبر السيد أن ما أصاب الآنسة من توعك قد زال تماما ، وأننى رأيت من الخير لها أن ترقد فى فراشها قليلا ..

ولم تنزل للغداء .. ولكنها ظهرت ثانية وقت تناول الشاى ، فإذا بها شديدة الامتقاع وقد احمرت جفونها .. إلا أنها كانت محتفظة بهدوئها الظاهرى إلى حد يثير الإعجاب ..

وفى صباح اليوم التالى توليت اجابة على الرسالة برقعة صغيرة قلت فيها :

« المرجو من السيد هيثكليف الا يبعث بشىء من الرسائل إلى مس لينتون بعد الآن ، لأنها لن تتسلمها .. » .

ومن ذلك الوقت أصبح صبى اللبان يأتى بجيوب خاوية ..

* * *

الفصل الثاني والعشرون

مر عيد القديس ميخائيل ، وأخذ الصيف يستحث خطاه راحلا ، والخريف يقبل مبكرا .. ولكن الحصاد كان متأخرا في ذلك العام ، وبقيت قلة من حقولنا لم يتم حصادها بعد .. وكان مستر لينتون وابنته يخرجان كثيرا للتجول بين عمال الحصاد ، فكانا يبقيان معهم ، في مراحل الحصاد الأخيرة ، حتى الغسق .. وكان الجو في تلك الأمسيات رطبا شديد البرودة ، حتى أصيب سيدي ببرد شديد سكن رئتيه وأبى الرحيل منهما ، كضيف ثقيل ، واضطره إلى ملازمة الدار طيلة الشتاء لم يبرحها خلاله قط ..

أما كاثي المسكينة ، التي تملك الروع قلبها من مغامرتها الصغيرة ، فقد ازدادت حزنا ووجوما منذ أن اضطرت إلى التخلي عن الاستمرار فيها ، فكان أبوها يلح عليها في الإقلال من القراءة ، والإكثار من الخروج للنزهة .. وإذ كانت قد حرمت رفقته ، فقد وجدت لزاما على أن أعوضها عن هذا الحرمان ـ على قدر الإمكان ـ بصحبتي لها .. ولكن هيهات أن أسد الفراغ الذي خلفه ، فلم يكن في وسعي أن أفرغ من مشاغلي اليومية الكثيرة إلا ساعتين أو ثلاثا أكرسها لمرافقتها .. ومع ذلك كان من الجلي أنها كانت أقل ارتياحا إلى رفقتي منها إلى صحبة أبيها ..

وبعد ظهر يوم من أواخر أكتوبر أو أوائل نوفمبر ـ وكان يوما مطيرا ، للعشب فيه وللممرات حفيف ووسوسة ،

يبعثها أوراق الشجر الجافة الندية ؛ وللسماء الزرقاء الباردة فيه أقنعة من السحب الكثيفة كأنها سفن عظيمة تشق عباب السماء مصعدة من الأفق الغربي ، ومنذرة بحمولة من المطر الغزير ـ رجوت سيدتي الصغيرة أن تعدل عن جولتها ، لتتقي من هطول الأمطار كالسيول ، ولكنها رفضت وأمعنت في الرفض .. فخرجت معها على مضض ، بعد أن تسربلت بمعطف كبير وحملت مظلتي ، وصحبتها في السير حتى نهاية الحديقة ، وهي نزهة جافة متكلفة كانت تقوم بها عادة إذا انحرف مزاجها ، وكانت تبدو كذلك كلما اشتدت العلة بمستر ادجار وساءت حاله عن المعتاد .. وما كان ليبوح لنا بذلك قط ، وإنما هو أمر نحدسه ـ كاثي وأنا ـ كلما طال صمته ولاحت الكآبة والانقباض في أساريره .. ومضت تسير في خطى حزينة متمهلة ، لا تجري ولا تقفز كعادتها ، برغم أن الرياح الباردة كانت خليقة بأن تغريها بالعدو والتوثب .. وكنت أرمقها من طرف خفي ، فألاحظ بين الحين والآخر أنها ترفع يدها لتمسح شيئا عن وجنتها .. فرحت أتطلع حولي باحثة عن شيء أغريها به لأسري عنها وأخرجها من لجة تفكيرها الحزين .. وكان على أحد جانبي الطريق مرتفع وعر تناثرت فيه بضعة من أشجار البندق والبلوط الضامرة وقد تعرى شطر من جذورها ، وأخذت تترنح غير مستقرة في مواضعها .. وكانت التربة في ذلك المرتفع من الرخاوة بحيث لم تحتمل أشجار البلوط ، فانحنى معظمها ، تحت دفع الرياح الشديدة ، ومال على الأرض في وضع أفقي .. وكانت مس كاثرين ، في أيام الصيف ، تجد متعة في تسلق جذوع

هذه الأشجار ، والجلوس بين أغصانها ، تتأرجح على ارتفاع عشرين قدما من الأرض .. وكنت أبتهج كلما رأيت خفتها ورشاقتها ومرحها الصبيانى ولهوها المنبعث عن قلب خال من الهموم ، إلا أننى ، فى الوقت نفسه ، كنت أجد من الأوفق أن أوجه لها اللوم كلما ضبطتها على هذا الارتفاع ، فكنت أفعل ذلك فى لهجة تدرك منها أنه ليس ثمة ما يضطرها إلى الهبوط ! .. كانت تظل منذ تناول الغداء حتى ساعة الشاى مضطجعة فى أرجوحتها التى يهزها النسيم ، لا تفعل شيئا سوى الترنم بالأغانى القديمة ـ أهازيج الطفولة التى كنت أهدهدها بها ـ أو مراقبة الطيور فى أعشاشها ومشاهدة الأب والأم صاحبى العش وهما يطعمان أفراخهما ويغريانها على الطيران ، أو تستكن فى استرخاء ، مطبقة الجفون ، يتداولها التفكير وأحلام اليقظة ، ملأى بسعادة تقصر الكلمات عن وصفها ..

وأشرت إلى فجوة صغيرة بين جذور شجرة ملتوية ، وصحت قائلة :

ـ انظرى يا آنسة ! .. إن الشتاء لم يحل هنا بعد .. فهذه زهرة صغيرة فوق المرتفع هناك ، هى آخر براعم زهور الليلك التى كانت تكسو المنحدر كله فى شهر يوليو بغلالة زرقاء رائعة الجمال .. فهل لك أن تتسلقى الهضبة ، وتقطفيها ، لتريها لأبيك ؟

فراحت كاثى تحدق النظر طويلا فى الزهرة الوحيدة التى كانت تهتز فى مثواها الأرضى ، قبل أن تجيب أخيرا :

ـ كلا .. لن أمسها ! .. ولكنها تبدو حزينة مكتئبة .. ألا ترينها كذلك يا إيلين ؟

ـ نعم .. فهى أشبه بك طهارة ونحولا .. أما ترين وجنتيك الشاحبتين كأنهما خاليتان من الدماء ؟ .. هاتى يدك فى يدى ودعينا نجرى معا ، فإنك اليوم من الإعياء بحيث أحسبنى قادرة على مجاراتك !

فلم ترد على أن قالت : كلا ..

واستمرت تمشى على مهل ، وهى تتلكأ هنا وهناك لتتأمل قطعة من الطحلب ، أو خصلة من العشب الجاف ، أو ثمرة من الفطر يشع لونها البرتقالى الفاقع بين أكوام أوراق الشجر الجافة السمراء .. وكانت ترفع يدها ، بين الحين والآخر ، إلى وجهها ، وهى تشيح به بعيدا عن أنظارى ..

فدنوت منها ، وأحطت كتفها بساعدى ، وسألتها قائلة :

كاثرين .. لماذا تبكين يا حبيبتى ؟ .. ما ينبغى لك أن تبكى لأن أباك أصيب بالبرد .. واحمدى الله أنه لم يمرض بما هو أسوأ من ذلك ..

عندئذ أطلقت لدموعها العنان ، ولم تعد تعمد إلى إخفائها عنى ، وقد اختنق صوتها وأنفاسها بنشيج متتابع ، وهى تجيبنى :

ـ آه ! .. سوف يصبح مرضه أسوأ بكثير .. وماذا تريننى فاعلة إذا ذهب أبى ، وذهبت أنت ، وخلفتمانى وحدى فى

العالم ؟ .. إننى لا أستطيع أن أنسى كلماتك يا إيلين ، فإنها لا تكف عن الرنين فى أذنى .. فكيف تتبدل حياتى ، وكم يصبح العالم موحشا مخيفا أمامى ، عندما يحين أجل أبى ، وتدركك المنية أنت الأخرى !

فأجبتها :

ـ لكل أجل كتاب ! .. ومن يدرى ، فقد تموتين قبلنا ! .. من الخطأ أن يتعجل المرء السوء قبل وقوعه ! .. فدعينا نرجو أن تنقضى أعوام وأعوام قبل أن يذهب أحدنا .. إن السيد ما زال شابا ، وأنا لم أتجاوز الخامسة والأربعين وما زلت قوية سليمة ، كما أن والدتى عاشت حتى الثمانين وظلت محتفظة بمرحها ونشاطها إلى النهاية ! .. وإذا فرضنا أن مستر لينتون عاش حتى يبلغ الستين من عمره ، فإن الأعوام الباقية أكثر من التى انقضت من عمرك يا آنسة ، ومن السخف أن تحزنى على مصيبة لن تحل إلا بعد عشرين عاما أو تزيد !

فتطلعت إلى فى نظرات يمشى فيها الأمل على استحياء ، كأنها تنشد فى كلماتى المزيد من الطمأنينة والعزاء ، وغمغمت تقول :

ـ ولكن عمتى إيزابيلا كانت أصغر من أبى ..

ـ إن عمتك إيزابيلا لم تجد من يعنى بتمريضها مثلك ومثلى .. ولم تلق من أسباب السعادة ، مثلما يلقى السيد ، كما لم يكن لديها ما يثير فيها حب الحياة والرغبة فى العيش

.. إن كل ما يلزمك ، يا عزيزتى ، هو أن تحسنى رعاية أبيك ، وأن تشيعى المرح والبهجة فى نفسه بأن يراك دائما مرحة مبتهجة ، وأن تتجنبى إثارة القلق فى نفسه من أية ناحية .. فاذكرى ذلك ياكاثى ولا تنسيه ! .. ولا أخفى عنك أنك قد تقتلينه بطيشك واندفاعك فى عاطفة حمقاء خيالية نحو ابن شخص يسره أن يرى أباك موسدا فى قبره ، أو إذا أظهرت له أنك تذوبين حزنا وأسى بسبب فراق رأى من صالحك أن يفرضه عليك ..

فأجابت قائلة :

ـ إننى لا أحزن لشىء على وجه الأرض إلا لمرض أبى .. ولا أبالى بأى شىء بجانب أبى .. ولن أفعل شيئا البتة ـ مطلقا ـ لن أفعل شيئا أو أقول كلمة واحدة تضايقه ، ما دمت محتفظة بجميع حواسى .. إننى أحبه أكثر من نفسى يا إيلين .. وقد عرفت ذلك بما أفعله كل ليلة من الصلاة والدعاء بأن أعيش بعده ، لأننى أوثر أن أتعذب وأشقى لفقده ، على أن يشقى ويتعذب إذا توفانى الله قبله .. أفلا يدل ذلك على أننى أحبه أكثر من حبى لنفسى !

ـ ما أجمل هذه الكلمات ! .. ولكن الأعمال أيضا يجب أن تثبت شعورك هذا .. وأرجو أن تذكرى ، عندما تتحسن صحته ، تلك القرارات التى اتخذتها فى ساعات الخوف والتوجس ..

وكنا ، أثناء حديثنا ، قد اقتربنا من باب موصد يؤدى إلى الطريق خارج الحديقة .. وكانت السيدة الشابة قد استعادت مرحها وإشراقها ثانية ، فتسلقت الجدار وجلست على قمة السور ، وأخذت تميل إلى الخارج لتلتقط بعض الثمار النابتة وسط زهور أشجار الورد البرى القرمزية ، التى تظلل جانب الطريق .. كانت الثمار السفلى قد اختفت ، أما العليا فلم يكن يستطيع الاقتراب منها ، غير الطيور وحدها ، إلا من يتخذ موضع كاثى الحالى .. وبينما كانت تميل لتجذبها نحوها سقطت قبعتها فى الطريق ، فاقترحت أن تهبط زاحفة من فوق السور لتستعيدها ، نظرا لأن الباب كان موصدا .. ورجوتها أن تكون حذرة حتى لا تقع ، وسرعان ما اختفت عن الأنظار فى خفة وسرعة .. ولكن العودة لم تكن بمثل هذه السهولة ، إذ كان الجدار أملس مصقولا ، جيد الطلاء ، خلوا من أى نتوء أو متكأ ، كما أن فروع شجيرات الورد الرخوة ، وأغصان شجيرات العليق الشاردة، كانت لا تقوى على أداء أية معونة عند تسلق الجدار .. أما أنا فلم أنتبه إلى ذلك ، لغفلتى وحمقى ، حتى سمعتها تضحك قائلة :

ـ سوف تضطرين إلى إحضار المفتاح يا إيلين ، أو أضطر إلى الانطلاق عدوا حتى كوخ الحارس .. فليس فى استطاعتى تسلق السور من هنا ..

ـ ابقى حيث أنت .. إن فى جيبى ربطة مفاتيح لعل فيها ما يفتح هذا الباب ، وإلا ذهبت لإحضار المفتاح ..

وأخذت كاثرين تتسلى بالغناء والرقص أمام الباب ريثما مضيت أجرب المفاتيح واحدا بعد الآخر ، ولكنى بلغت آخرها دون أن أجد بينها ما يطابق قفل الباب .. فأعدت عليها رغبتى بأن تبقى مكانها ، وكنت على وشك أن أهرع نحو الدار بأسرع ما فى طاقتى عندما بلغ مسامعى صوت جعلنى أجمد فى مكانى ، وكان ذلك وقع حوافر جواد يقترب مسرعا ..

وتوقفت كاثى عن الرقص كذلك ، فسألتها بصوت خفيض :

ـ من هذا ؟

وإذا برفيقتى تهمس فى لهفة بالغة :

ـ إيلين .. ليتك تستطيعين فتح الباب سريعا !

عندئذ انبعث صوت عميق (هو صوت راكب الجواد) يصيح قائلا :

ـ مهلا يا مس لينتون ! .. شد ما يسرنى أن ألقاك .. ولكن لا تتعجلى الدخول ، فإن هناك إيضاحا أود أن أسألك عنه وتجيبينى عليه ..

فأجابته قائلة :

ـ إنى لن أخاطبك يا مستر هيثكليف ، فإن أبى يقول إنك رجل شرير تمقته وتمقتنى معا ! .. وقد أيدت إيلين ذلك ..

فقال هيثكليف (وكان هو نفسه القادم) :

ـ لا شأن لذلك بالغرض الذى أحدثك من أجله .. إننى لا أمقت ابنى ، على الأقل .. والأمر الذى أود أن أسترعى انتباهك إليه إنما يخصه هو .. نعم .. يحق لك أن يحمر وجهك خجلا ! .. ألم تكونى ، منذ شهرين أو ثلاثة ، تكتبين إلى لينتون كل يوم ؟.. أكنت تتخذين من الحب ملهاة ومسلاة إذن ؟.. إنكما ، كلاكما ، تستحقان الجلد بالسياط جزاء وفاقا، وخصوصا أنت ، لأنك أكبر سنا ، وأبلد شعورا ، كما وضح فيما بعد ! .. ولكنى حصلت على خطاباتك ، وسوف أبعث بها إلى أبيك إذا لم تعيرى كلامى أذنا واعية ، أو أبديت استهانة بما أقول .. إننى أحسبك مللت هذه اللعبة ، فانصرفت عنها .. أليس كذلك ؟.. حسنا .. إنك عندما طرحتها عنك ، طرحت لينتون معها فى هوة من اليأس والقنوط ! .. لقد كان جادا ، لا لاهيا ولا عابثا ، فأحبك حقا .. والحقيقة الواقعة ، كوجودى على قيد الحياة أمامك . أنه على وشك الموت من أجلك ، وقد سحق قلبه ـ حقا لا مجازا ـ غدرك وتقلب أهوائك .. ومع أن هيرتون ظل طوال الأسابيع الستة الأخيرة يمازحه ويلاعبه ليسرى عنه ، وعلى الرغم من أننى اتخذت نحوه تدابير أكثر صرامة ، وحاولت أن أخيفه وأروعه ليدع حمقه وغفلته ، فإنه يزداد سوءا يوما بعد يوم ، وسوف

يغيبه الثرى قبل الصيف المقبل ، إلا إذا أنقذته وأعدت إليه الحياة !

فصحت من وراء الباب قائلة :

ـ كيف يمكن لك أن تكذب على الطفلة المسكينة بهذه الجرأة ؟ .. امض لشأنك بالله عليك ! .. فلست أدرى كيف تختلق عن عمد هذه الترهات الخسيسة ! .. سوف أحطم القفل بحجر ، يا مس كاثى ، فلا تصدقى كلمة من هذا الهراء الخبيث .. وقد أدركت بنفسك أن من المستحيل أن يموت أحد غراما بشخص غريب عنه ..

فغمغم الشقى الذى انكشف أمره ، قائلا :

ـ لم أكن أعلم أن هناك جواسيس يسترقون السمع ! .. أهذه أنت يا مسز دين العظيمة ؟ .. إننى أحبك ، ولكنى لا أحب نفاقك يا ذات الوجهين !

ثم استطرد يقول بصوت عال :

ـ وكيف يمكن لك « أنت » أن تكذبى على «الطفلة المسكينة» بهذه الجرأة ، فتؤكدى لها أننى أبغضها ، وتخترعى لها من قصص الغيلان ما يخيفها منى وينفرها من بيتى ؟ .. اسمعى يا بنيتى العزيزة ، يا كاثرين لينتون (وهذا الاسم بالذات يبعث الدماء حارة فى عروقى) سوف أغيب عن منزلى طوال

هذا الأسبوع .. فاذهبي لترى بنفسك أنني لم أخبرك إلا صدقا .. اذهبي يا عزيزتي ! .. بل عليك أن تتخيلي والدك في مكاني ، ولينتون في مكانك ، ثم فكري بعد ذلك كيف تكون نظرتك إلى حبيبك الجحود ، إذا أبى أن يخطو خطوة واحدة لمواساتك ، بينما أبوك نفسه يرجوه ويستعطفه ! .. ولا تقعي في هذا الخطأ نفسه لا لشيء سوى الغباء والحمق .. إنني أقسم لك بخلاص روحي ، إنه يسير نحو القبر سيرا حثيثا ، وليس من يستطيع إنقاذه سواك ..

وتهاوى القفل تحت طرقاتي فاندفعت خارجة ، بينما كان هيثكليف يتابع كلامه لها ، وهو يحدجني بنظرة صارمة ، قائلا:

ـ أقسم لك إن لينتون مشرف على الموت حقا ، وإن الحزن والحسرة سوف يعجلان بنهايته المحتومة ! .. وأنت يا نللي ، إذا كنت مصرة على منعها من الذهاب ، فامضي إلى هناك بنفسك لتريه بعينيك .. إنني لن أرجع من رحلتي إلا في مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل ، ولا أحسب أن سيدك نفسه يطاوعه قلبه على منعها من زيارة ابن عمتها !

فقلت لكاثرين : « تعالي معي » .

وكنت قد أمسكت بذراعها وأنا لا أكاد أجرها إلى الداخل جرا ، بعد أن رأيتها تتلكأ مترددة ، وتتطلع إلى وجه محدثها بعينين يملؤهما القلق والانشغال ، بينما كانت أساريره

الجامدة من الصرامة بحيث تخفي خداعه ولؤمه .. وما لبث أن دفع بجواده إلى جانبها ، ومال فوقه نحوها ، قائلا :

ـ إنني أعترف لك يا مس كاثرين بأن صبري قد نفد من لينتون وحالته ، كما ضاق به هيرتون وجوزيف ذرعا ، وأعترف لك أيضا بأنه يعيش في وسط سمته الفظاظة والخشونة .. وأنه يذوي سريعا لحرمانه من العطف والحب .. لذلك فإن كلمة رقيقة منك سوف تكون خير دواء له .. فلا تلقي بالا إلى تحذيرات مسز دين القاسية ، بل كوني رقيقة كريمة ، واسعي إلى رؤيته .. فإنك تترائين له في أحلامه بالليل والنهار ، وهو لا يتخلى عن عقيدته بأنك تكرهينه، بعد أن امتنعت عن زيارته والكتابة إليه ..

فأغلقت الباب ودحرجت وراءه حجرا ليدعمه بعد أن تحطم قفله ، ثم نشرت مظلتي وجذبت وديعتي تحتها ، إذ بدأ المطر يتساقط علينا من بين فروع الأشجار الشجية الأنين ، نذيرة لنا بألا نتوانى في الخارج حتى لا تفاجئنا سيوله المنهمرة .. وكان إسراعنا وتلهفنا على العودة للدار يمنعاننا من التعليق على هذا اللقاء غير المتوقع مع هيثكليف ، ولكنني تكهنت ، بإلهام من غريزتي ، بأن قلب كاثرين كان ملبدا بغيوم الظلمات الكثيفة .. وكان الحزن والأسى يطبعان أساريرها بطابع غريب

بدلها تبديلا ، حتى لقد أنكرتها .. وكان من الجلى أنها صدقت كل كلمة وكل حرف مما سمعته ..

وجدنا السيد قد أوى إلى حجرته قبل عودتنا ، فتسللت كاثى إليها لتسأل عن حالته ، فألفته مستغرقا فى النوم ، وعندئذ عادت لتطلب منى أن أجلس معها فى المكتبة .. وتناولنا الشاى معا ، فلما فرغنا منه استلقت على البساط ، وطلبت منى ألا أتكلم ، زاعمة أنها متعبة مرهقة .. فأخذت كتابا وتظاهرت بالقراءة .. وما أن حسبتنى مستغرقة فيها ، حتى بدأت بكاءها الصامت الذى يبدو أنه أصبح الآن مسلاتها المفضلة ! .. وتركتها تسرى عن نفسها برهة ، ثم اندفعت فى عتاب طويل ، محاولة تسفيه أقوال مستر هيثكليف ومزاعمه عن ابنه ، والسخرية منها ، كأنما حسبت أنها ستوافقنى .. ولكن واأسفاه !.. فلم تكن لى تلك المهارة وذلاقة اللسان الخليقة بأن تزيل عن نفسها الأثر الذى أحدثته روايته .. وكان ذلك ما يرمى إليه تماما ..

وأجابتنى أخيرا :

ـ ربما كنت على حق يا نللى ، ولكنى لن أحس بالراحة قط حتى أعرف الحقيقة .... ولا بد لى من أن أخبر لينتون بأنه لم يكن لى ذنب فى امتناعى عن الكتابة إليه ، وأن أقنعه بأننى لن أتغير عن عهده قط ..

فما جدوى الغضب والاحتجاج إزاء سذاجتها الحمقاء ، وسلامة نيتها البلهاء ؟ ..

لقد افترقنا تلك الليلة على غير وفاق .. ولكن اليوم التالى شهدنى على الطريق إلى « مرتفعات ويذرنج » ، مهرولة بجانب مهر سيدتى العنيدة .. فلم يكن فى وسعى أن أطيق رؤيتها حزينة ، وأن أحتمل مرأى وجهها الشاحب وعينيها المقروحتين بالبكاء .. ورضخت لرغبتها ، وقد تراوحنى أمل واه بأن يثبت لها لينتون نفسه ، عند استقباله لنا ، مبلغ ما فى الرواية من كذب وبهتان ..